رواية

ميلان كونديرا

حفلة التفاهة



ترجمة: معن عاقل

المركز الثقافي العربي

ميلان كونديرا

حفلة التفاهة

ترجمة: معن عاقل

المركز الثقافي العربي

ميلان كونديرا

حفلة التفاهة

الكتاب

حفلة التفاهة

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

معن عاقل

الطبعة

الأولى، 2014

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-732-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

هذه ترجمة عن اللغة الفرنسية لكتاب:
La fête de l'insignifiance
Milan Kundera

الجزء الأول

الأبطال يتعارفون

آلان يتأمل السرة

ذات يوم من أيام شهر حزيران/ يونيو، وشمس النهار تتبدى من بين الغيوم، عبر آلان متمهلاً شارعاً من شوارع باريس. راح يراقب الفتيات الشابات اللاتي يُظهرن سررهن العارية بين بنطال واطئ وقميص قصير. كان مأخوذاً؛ مأخوذاً بما يرى، لا بل مضطرباً: كأنّ سلطة إغرائهن لم تعُد تتركّز في أفخاذهن أو أردافهن أو نهودهن، إنما في هذه الحفرة الصغيرة المدوّرة التي تتوسط أجسادهن.

دفعه ذلك للتفكير: عندما يرى رجل (أو عصر) في الفخذين مركَز الإغراء الأنثوي، فكيف نحدِّد خصوصية هذا التوجّه الإيروتيكي ونَصِفَه؟ ارتجل جواباً: امتدادُ الفخذين هو صورة مجازية لطريق طويل وجذاب (لذلك ينبغي أن يكون الفخذان طويلين) يفضي إلى إنجاز إيروتيكي؛ ويتابع آلان تفكيره، في الحقيقة، حتى في المضاجعة، يسبغ امتداد الفخذين على المرأة ذلك السحر الرومانتيكي لِما هو عصيّ على المنال.

حين يرى رجل أو (عصر) مركز الإغراء الأنثوي في الردفين، فكيف نحدِّد خصوصية هذا التوجّه الإيروتيكي ونَصِفَه؟ ارتجل جواباً: فظاظة؛ مرح؛ أقصر طريق إلى الهدف، هدفٌ مثيرٌ بقدر ما هو مزدوج.

حين يرى رجل (أو عصر) مركز الإغراء الأنثوي في النهدين، فكيف نحدد خصوصية هذا التوجه الإيروتيكي ونَصِفَه؟ ارْتَجَلَ إجابة: تقديس المرأة؛ مريم العذراء مُرضعة المسيح؛ خضوع الجنس المذكَّر للمهمة النبيلة للجنس المؤنث.

لكن كيف تتحدَّد شهوانية رجل (أو عصر) يرى الإغراء الأنثوي متمركزاً وسط الجسد، في السرة؟

رامون يتنزه في حديقة لوكسمبورغ

في اللحظة ذاتها التي كان آلان يفكر فيها بالينابيع الممتلئة للإغراء الأنثوي، وجد رامون نفسه أمام المتحف المجاور لحديقة لوكسمبورغ الذي يعرض منذ شهر لوحات شاغال. كان يرغب برؤيتها، لكنه يعلم سلفاً أنّ قدرته لن تسعفه ليتحوَّل طوعاً إلى جزء من هذا الصف الطويل الذي يتقدم ببطء نحو الصندوق؛ أخذ يراقب الناس ووجوههم المشلولة من الضجر، وتخيل الصالات حيث ستغطي فيها أجسادهم وثرثراتهم الخافتة على اللوحات، فما كان منه إلا أن انعطف بعد دقيقة وسلك الممر إلى الحديقة.

كان الجو عليلاً هناك؛ وبدا الجنس البشري أقلّ عدداً وأكثر حرية: ثمة من يركض، ليس لأنه مستعجل، وإنما لأنه يحب الركض؛ وثمة مَن يتنزه ويأكل البوظة؛ وثمة تلاميذ آسيويون يؤدون فوق العشب حركات غريبة وبطيئة؛ وأبعد من ذلك، في الدائرة الفسيحة، ثمة تماثيل بيضاء كبيرة لملكات وسيدات أخريات من نبلاء فرنسا، أبعد أيضاً، على مروج العشب بين الأشجار، وفي جميع اتجاهات الحديقة، تنتشر منحوتات لشعراء ورسامين وعلماء؛ توقف أمام تمثال من البرونز لمراهق جذاب عارٍ تحت سرواله الداخلي القصير يمدّ له بأقنعة تمثِّل وجوه بلزاك وبيرليوز وهيغو وديماس. لم يستطع رامون أن يكبح ابتسامته وتابع تسكُّعه في حديقة العباقرة، الذين يمنحهم تواضعهم وما يحيط بهم من لامبالاة المتنزهين اللطيفة، شعوراً ممتعاً بالحرية، فلا أحد يتوقف لينظر إلى وجوههم أو يقرأ النقوش على قاعدة تماثيلهم. تنسَّم رامون هذه اللامبالاة كما لو أنها عزاء يواسيه. وشيئاً فشيئاً، تبدّت على وجهه ابتسامة مديدة.

سرطان لم يحدث

في اللحظة التي رفض فيها رامون التوجُّه إلى معرض شاغال واختار التسكُّع في الحديقة، كان دارديلو يصعد الدرج المفضي إلى عيادة طبيبه: بعد ثلاثة أسابيع تماماً، من هذا اليوم، سيصادف عيد ميلاده. لقد بدأ يكره أعياد ميلاده، منذ زمن بعيد،

بسبب الأرقام التي تلصق فوقها. ومع ذلك، لم يحدث أن تباهى بها، لأن سعادته في الاحتفال كانت تتغلب على خجله من الشيخوخة. وفي الأخص هذه المرة، فزيارته للطبيب تضفي عليها لوناً جديداً. لأنه سيعرف اليوم نتائج كل الفحوصات التي ستبيّن له إنْ كانت الأعراض المشبوهة التي تكشف عنها جسده ناجمة عن السرطان أم لا. دخل إلى حجرة الانتظار، وردّد في سرِّه بصوتٍ راعش أنه سيحتفل بعد ثلاثة أسابيع في آنٍ معاً بذكرى ميلاده التي صارت بعيدة وذكرى موته الذي أصبح وشيكاً؛ وأنه سيشهد عيداً مزدوجاً.

لكنه ما إن رأى وجه طبيبه الباسم حتى أدرك أن الموت ألغى دعوته. صافحه الطبيب بحرارة. ولم يستطِع دارديلو أن يتفوّه بكلمة، فيما الدموع تطفر من عينيه.

تقع عيادة الطبيب في جادة الأوبسرفاتوار، على بُعد مئتي متر من حديقة لوكسمبورغ. شرع دارديلو يجتاز الحديقة لأنه يسكن في الشارع الواقع على الجهة الأخرى منها. جعلت النزهة على المرج الأخضر مزاجه المنشرح مرحاً تقريباً، خاصة عندما بدأ يطوف حول الدائرة الكبيرة المُشَكّلة من تماثيل ملكات فرنسا القديمات، المنحوتة كلها من الرخام الأبيض، بكامل أجسادهن، وفي وضعيات احتفالية أظهرتهن له ضاحكات؛ إن لم يكنّ مرحات؛ كأنهن يهلّلن على هذا النحو للخبر الجديد الذي تبلّغه للتوّ. لم يستطِع تمالُك نفسه، فحيّاهن مرتين أو ثلاث برفعِ يده وانفجر ضاحكاً.

السحر السري للمرض الخطير

في مكانٍ ما من هناك، وعلى مقربة من سيدات الرخام العظيمات، التقى رامون بداريلو الذي كان زميله قبل عام في مؤسسةٍ لا يهمّنا اسمها. توقّف كلّ واحدٍ منهما في مواجهة الآخر، وبعد التحيات المعتادة، راح داريلو يحكي بصوتٍ مثيرٍ على نحوٍ غريب:

«صديقي، أتعرف لافرانك؟ منذ يومين مات حبيبها»

توقف للحظة، فطفا في ذاكرة رامون وجه امرأة جميلة مشهورة لم يرها إلا في الصور.

«تابع داريلو: احتضار مؤلم جداً. عاشت جلَّ حياتها معه، أوه كم تألَّمت»!

نظر رامون بذهول إلى هذا الوجه المرح يروي له حكاية كئيبة.

«تَخَيَّلْ أنها في مساء ذلك اليوم ذاته، الذي احتضنت في صباحه جسده الميت بين ذراعيها، تناولت عشاءها معي ومع بعض الأصدقاء، ولن تصدّق أنها كانت مرحة تقريباً! أعجبني ذلك! هذه القوة! هذا الحب للحياة! ومع أن عينيها كانتا لا تزالان محمرَّتين من البكاء، فقد كانت تضحك! لكننا كنا جميعاً نعرف كم أحبته! وكم كابدت من الألم! هذه المرأة مجبولة من القوة!»

وكما حدث قبل ربع ساعة عند الطبيب، التمعت الدموع في

عينَي دراديلو. لأنه كان يفكِّر بنفسه، وهو يتحدث عن قوة لافرانك المعنوية. ألم يعِش هو طيلة شهر في حضرة الموت أيضاً؟ ألم تخضع قوة شخصيته هو لاختبار قاسٍ أيضاً؟ وحتى بعد أن أصبح مرض السرطان مجرّد ذكرى، ظلّ يلازمه كضوءِ مصباحٍ صغير يُبهره على نحوٍ غامض، لكنه نجح في السيطرة على مشاعره وانتقل إلى نبرة أكثر واقعية: «بالمناسبة، إن لم أكن مخطئاً، أنت تعرف من يمكنه أن ينظم حفلات الكوكتيل وإعداد الطعام وما شابه.

- قال رامون: طبعاً أعرف»

واستطرد داردیلو:

«سأنظم حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلادي»

بعد حديثهما المثقل بالانفعالات عن الشهيرة لافرانك، سمحت تلك الجملة الأخيرة، بوقعها الخفيف، لرامون أن يبتسم: «أرى أن حياتك مرحة».

الغريب أن هذه الجملة لم ترُق لداردیلو. كأنما الوقع الخفيف لجملته الأخيرة، بدَّد الجمال العجيب لبهجته التي منحها رثاء الموت، الذي لم تزل ذكراه تسكنه، سحراً خاصاً؛ قال: «أجل، الأمور على ما يرام»، صمت للحظة، ثم أضاف: «... حتى لو ...»

توقف عن الكلام مرة أخرى، ثم قال: «كما تعلم، رأيت طبيبي للتو»

سَرَّه ما رأى من اضطراب على وجه مُحَدِّثِهِ، فأطال من صمته، حتى لم يتمالك رامون نفسه عن السؤال: «وإذاً؟ هل ثمة مشاكل؟

- ثمة بعضها»

سكت دارديلو من جديد، ومن جديد لم يتمالك رامون نفسه عن السؤال: «ماذا قال لك الطبيب؟»

في هذه اللحظة شاهد دارديلو صورة وجهه في عينَي رامون كما في مرآة. وجه رجل أصبح مسناً ولم يزل وسيماً، موشّى بحزنٍ لا ينفك يزيد جاذبيته؛ وحَدَّثَ نفسه بأن هذا الرجل الوسيم الحزين سيحتفل بعيد ميلاده عمّا قريب، والفكرة التي راودته قبل زيارته للطبيب انبعثت ثانية في رأسه، الفكرة الساحرة للاحتفال المزدوج في آنٍ معاً بميلاده وموته. تابع النظر إلى نفسه في عينَي رامون، ثم قال بصوتٍ مفعمٍ بالهدوء، مفعم بالعذوبة: «سرطان...»

غمغم رامون بشيء ما، وبرعونة وأخوية، لمس بيده ذراع دارديلو: «لكن يمكن علاجه...

- قال دارديلو: للأسف، فات الأوان. لكن انسَ ما أخبرتك به الآن، ولا تحدِّث أحداً به؛ وفَكِّرْ أكثر في حفلة الكوكتيل. يجب أن نحيا! وقبل أن يتابع طريقه، رفع يده كعلامة تحية، والحركة التي رفع بها يده محيياً بإيماءة غامضة شبه خجولة، كان لها سحر غير متوقع هزّ مشاعر رامون.

كذب غامض وضحك غير مفسَّر

انتهى لقاء الزميلين القديمين بهذه الإيماءة الجميلة، لكن لا يسعني أن أتجنب هذا السؤال: لماذا كذب دارديلو؟

طرح دارديلو هذا السؤال على نفسه بعد ذلك مباشرة ولم يجد له جواباً. لا، لم يكن خجلاً لأنه كذب. ما كان يحيِّره هو عدم قدرته على فهم سبب هذه الكذبة. وبشكلٍ طبيعي، فالمرء يكذب عادة كي يخدع شخصاً ويحصل منه على فائدة ما. أما هو فما عساه يكسب من اختلاق إصابته بالسرطان؟ والغريب أنه وهو يفكِّر بابتذال كذبته، لم يتمالك نفسه عن الضحك. وهذا الضحك لم يكن أيضاً مفهوماً. لماذا كان يضحك؟ وهل وجد تصرفه هزلياً؟ لا. فضلاً عن أنّ حسّ الهزل لم يكن واحداً من مهاراته. هكذا وبكلّ بساطة، ودون أن يعرف السبب، كانت إصابته المتخيلة بالسرطان تسرّه. تابع طريقه وواصل ضحكه. يضحك ويستمتع بمزاجه المنشرح.

رامون في زيارة شارل

بعد ساعة من لقائه بداريلو، ذهب رامون إلى بيت شارل. قال: «أحمل لك كهدية خبراً عن حفلة للكوكتيل.

- مرحى! نحن نحتاج ذلك هذا العام. قال شارل داعياً صديقه للجلوس إلى منضدة واطئة مقابله.

- إنها هدية لك ولكاليبان. بالمناسبة أين هو؟
- وأين عساه يكون؟ إنه في البيت، عند زوجته.
- لكنني آمل أن يظلّ معك في حفلات الكوكتيل.
- طبعاً. لا تزال المسارح تسخر منه»
شاهد رامون كتاباً ثخيناً موضوعاً على الطاولة. انحنى ولم يستطِع إخفاء دهشته: «**مذكرات نيكيتا خروتشوف**. لماذا؟
- أعطاني إياه أستاذنا.
- لكن ما الأهمية التي وجدها أستاذنا فيه؟
- حدد لي بضع فقرات. ما قرأته كان مضحكاً جداً.
- مضحك؟
- حكاية الأربع والعشرين طيراً من الحجل
- ماذا؟
- حكاية الأربع والعشرين طيراً من الحجل. ألا تعرفها؟ مع أنه منها بدأ التغيير العظيم في العالم!
- التغيير العظيم في العالم؟ حقاً؟
- حقاً. لكن أخبرني، ما مناسبة حفلة الكوكتيل؟ وعند مَن؟
شرح رامون وسأل شارل: «ومن هو دارديلو؟ أهو مغفل مثل جميع زبائننا؟
- بالتأكيد.
- ومن أي نوع حماقته؟
- من أيِّ نوع حماقته...» كرَّر رامون متفكراً؛ ثم: «هل تعرف كاكوليك؟»

موعظة رامون حول اللامع والتافه

«تابع رامون: صديقي القديم كاكوليك هو واحد من أعظم العدائين الذين عرفتهم. أمضيت ذات مرة سهرة حضرها هو ودارديلو. لم يكن أحدهما يعرف الآخر. كانا في الصالة المزدحمة ذاتها من قبيل الصدفة فقط وعلى الأرجح لم يلاحظ داردیلو وجود صديقي. حضرتها نساء جميلات للغاية أيضاً وكان داردیلو مولهاً بهن. كان مستعداً ليفعل المستحيل كي يهتممنَ به. في ذلك المساء، انطلقت من فمه كلّ الألعاب النارية التي تجيش في نفسه.

- أكان شخصاً مستفزاً؟

- بالعكس. حتى مزحاته ظلّت أخلاقية ومتفائلة وصائبة، لكنها في الوقت ذاته مُصاغة بشكل لائق، وملتبس، ويصعب فهمها، إلى حدّ أنها جذبت الانتباه دون أن تثير صدىً مباشراً. كان يجب انتظار ثلاث أو أربع ثواني قبل أن ينفجر هو نفسه ضاحكاً، ثم يصبر بضعَ ثوانٍ أخرى قبل أن يفهمها الآخرون وينضموا إليه بأدب. عندئذٍ، وفي اللحظة التي يبدأ فيها الجميع بالضحك -وأرجوك أن تقدِّر هذا التهذيب!- يصبح جدياً؛ كأنه غير مبالٍ، وتقريباً ضجر، يراقب الناس، ويستمتع بضحكهم خفية وبخيلاء. أما كاكوليك، فكان مختلفاً تماماً. وهذا لا يعني أنه بقي صامتاً. فعندما كان بين الناس، طفق يتمتم بلا انقطاع بشيء ما بصوته الخافت الذي يصفُر أكثر ممّا يتكلم، لكن لا شيء ممّا يقوله يجذب الانتباه»

ضحك شارل.

«لا تضحك. فأن يتكلم المرء دون أن يلفت الانتباه، ليس بالأمر الهيّن! أن يكون حاضراً بكلامه، ويظلّ مع ذلك غير مسموع، لهوَ أمرٌ يتطلب براعة!

- يفوتني معنى هذه البراعة.

- الصمت يجذب الانتباه. وقد يكون مثيراً. يجعلك غامضاً. أو مشبوهاً. وهذا بالضبط ما أراد كاكوليك تجنّبه. كما فعل في تلك السهرة التي أحدِّثك عنها. ثمة حسناء فتنت دارديلو، وما انفك كاكوليك يوجّه لها بين فينة وأخرى ملاحظة تافهة جداً، ومنفِّرة، ولا قيمة لها، لكنها ممتعة جداً حتى إنها لم تكن تتطلب أي استجابة ذكية ولا أي حضور للبديهة. وبعد بعض الوقت، اكتشفتُ أن كاكوليك لم يعُد في المكان. فرحتُ أراقب السيدة محتاراً. كان دارديلو قد تفوّه للتو بإحدى نكاته، وتلاها صمت لمدة خمس ثواني، ثم انفجر ضاحكاً، وبعد خمس ثوانٍ أخرى، قلَّده الآخرون. وفي تلك اللحظة، ابتعدت المرأة نحو المخرج متوارية خلف حجاب الضحك، بينما استمر دارديلو في عروضه اللفظية متباهياً بالصدى الذي أثارته نكاته، لكنه لاحظ بعد ذلك بقليل أن المرأة لم تعُد موجودة. ولأنه لم يكن يعرف شيئاً عن وجود كاكوليك في السهرة، لم يجد تفسيراً لاختفائها. لم يفهم شيئاً، ولم يزل حتى اليوم لا يفهم شيئاً عن قيمة التفاهة. هذا هو جوابي عن سؤالك عن نوع حماقة دارديلو.

- أجل، أفهم، من غير المُجدي أن يكون المرء لامعاً.

- وأكثر من عدم الجدوى. إنه مؤذٍ. فحين يحاول رجل لامعٌ إغراء امرأة، يتولَّد لديها انطباع أنها تدخل في منافسة. وتضطرّ هي أيضاً للتألق، ولا تمنح نفسها دون مقاومة. بينما التفاهة تحرِّرها. تجرِّدها من حذرها. لا تتطلب أي حضور للنباهة. تجعلها لا مبالية وبالتالي سهلة المَنال، لكن لنتجاوز ذلك. مع داردیلو، لن تواجه التافه وإنما النرجسيّ. وانتبه إلى المعنى الدقيق لهذه الكلمة: النرجسي، ليس المتكبِّر. فالمتكبِّر يحتقر الآخرين، يقلِّل من قدرهم، أمّا النرجسي فيُغالي في تقديرهم، لأنه يرى في عينيّ كل واحد منهم صورته الخاصة ويريد تجميلها. يهتمّ إذاً بلُطف بكل مراياه. وما يهم في نظرك من بينهما: هو اللطيف. أما برأيي، فهو النفاج بالطبع. غير أن أمراً ما تغير بيني وبينه. علمت أنه مصاب بمرض خطير. ومذّاك، أصبحتُ أراه بشكل مختلف.

- مريض؟ بِمَ؟

- بالسرطان. وقد أدهشني أن أكتشف إلى أيّ مدى أحزنني ذلك. لعله يعيش أشهره الأخيرة»

ثم تابع قائلاً بعد توقف قصير: «تأثرتُ بالطريقة التي حدثني بها... مختصرة جداً، وحتى متحفظة... دون تفخيم استعراضي، ودون أيّ أثر للنرجسية. وفجأة، شعرتُ ربما للمرة الأولى حيال هذا المغفّل بتعاطف حقيقي... تعاطف حقيقي...»

الجزء الثاني

مسرح العرائس

أربعة وعشرون طيراً من الحجل

كان ستالين يحبّ المكوث لبعض الوقت مع معاونيه بعد أن يمضي أياماً مديدة متعبة، وكان يشعر بالارتياح وهو يقصّ عليهم حكاية قصيرة من حياته. على سبيل المثال هذه الحكاية:

قرر ذات يوم أن يذهب إلى الصيد. ارتدى معطفاً رياضياً قديماً وانتعل حذاء تزلج وتنكَّب ببندقية صيد طويلة واجتاز ثلاثة عشر كيلو متراً. عندئذٍ، شاهد أمامه طيور حجلٍ جاثمة على شجرة. توقف وعدّهن. هناك أربعة وعشرون طيراً من الحجل، لكن يا لسوء الحظ! لم يأخذ معه إلا اثنتي عشرة طلقة! يطلق النار عليها، فيقتل منها اثني عشر طيراً، ثم يعود ويجتاز من جديد ثلاثة عشر كيلو متراً نحو منزله ويأخذ مجدداً اثنتي عشرة طلقة ويجتاز مرة أخرى الثلاثة عشر كيلو متراً ليجد نفسه أمام طيور الحجل لم تزل جاثمة على الغصن ذاته. فيطلق النار عليها وها هي جميعاً أخيراً. . .

يسأل شارل: «هل تعجبك هذه الحكاية؟» فيضحك كاليبان:

«لو أن ستالين رواها حقاً، لصفَّقتُ له! لكن من أين جئتَ بهذه الحكاية؟

- أحضر لي معلمنا هذا الكتاب كهدية، **مذكرات خروتشوف**، المطبوع في فرنسا منذ فترة طويلة. روى فيه خروتشوف حكاية الحجلات مثلما حكاها ستالين في مجلسه الصغير. لكن بحسب ما كتب خروتشوف، لم يتصرف أحدٌ مثلك. لم يضحك أحد. الجميع بلا استثناء وجدوا أنّ ما رواه ستالين سخيف واشمأزوا من كذبته، لكنهم صمتوا، وحده خروتشوف تشجَّع وصارح ستالين بما يدور في خلده. اسمع»

فتح شارل الكتاب وقرأ بهدوء وصوت جهوري: «ماذا؟ هل تقصد حقاً أن طيور الحجل لم تغادر غصنها؟ قال خروتشوف.

«أجاب ستالين: بالضبط، ظلت جاثمة في المكان ذاته»

«لكن القصة لم تنته، لأنه عليك أن تعرف أنهم عادوا جميعاً في نهاية يوم عملهم إلى صالة الحمامات، وهي صالة كبيرة تُستخدم أيضاً كمراحيض. تصور. ثمة على أحد الجدران صف طويل من المِبْولات، وعلى الجدار المقابل، ثمة صف من المغاسل. المبولات على شكل قواقع، مصنوعة من السيراميك، من كل الألوان، ومزينة برسومات أزهار. كان لكلّ عضو من فريق ستالين مبولته الخاصة التي أبدعها ووقَّع عليها فنان مختلف أما ستالين فلم تكن لديه مبولة.

- وأين كان يبول ستالين؟

- في مرحاض مستقل، يقع في الجانب الآخر من البناء؛

وبما أنه يبول لوحده، ولم يبُل قط مع معاونيه، فإن أولئك كانوا يشعرون بأنفسهم أحراراً تماماً في المراحيض ويتجرؤون أخيراً على التحدث بصوت مرتفع عن كل ما اضطروا للسكوت عنه في حضرة الزعيم. خاصة يوم حكى لهم ستالين قصة الأربع والعشرين طيراً من الحجل. سأستشهد لك أيضاً بخروتشوف: «... ونحن نغسل أيدينا في صالة الحمامات، رحنا نقذف الشتائم. كان يكذب! كان يكذب! وليس لدى أحد منا شك بذلك».

- ومَن كان هذا الخروتشوف؟

- أصبح بعد سنوات من موت ستالين الزعيم الأعلى للإمبراطورية السوفيتية»

قال كاليبان بعد برهة: «الشيء الوحيد الذي يبدو لي غريباً في هذه الحكاية، هو أن أحداً لم يُدرك أن ستالين كان يمزح.

- بالتأكيد» قال شارل ووضع الكتاب على الطاولة، «لأن أياً ممّن هم حوله لم يعُد يعرف ما هو المزاح، وما هي المزحة. وبذلك، كما أرى، أعلنتْ مرحلة عظيمة وجديدة من التاريخ عن ولادتها»

شارل يحلم بمسرحية لمسرح العرائس

في قاموسي الكافر، ثمة كلمة واحدة مقدَّسة: الصداقة. أحبّ أصحابي الأربعة الذين عرَّفتكم إليهم، آلان ورامون وشارل

وكاليبان. وبُغية مؤانستهم، أحضرتُ لشارل ذات يوم كتاب خروتشوف حتى يتسلوا به جميعاً.

سبق لهم أربعتهم أن عرفوا حكاية طيور الحجل ونهايتها الساحرة في المراحيض، وذات يوم اشتكى كاليبان لآلان: «صادفتُ صديقتك مادلين ورويت لها حكاية طيور الحجل، لكن بحسب رأيها، هذه ليست سوى حكاية غير مفهومة عن صياد! ربما تعرف اسم ستالين على نحو غامض، إلا أنها لم تفهم لماذا يحمل صياد هذا الاسم...

- قال آلان مدافعاً عن صديقته الصغيرة: إنها في العشرين من عمرها وحسب.

- تدخَّل شارل: إذا صحَّت حساباتي، فإن صديقتك مادلين ولدت بعد نحو أربعين عاماً من موت ستالين. أما أنا، فاضطررت للانتظار سبعة عشر عاماً بعد موته كي أولد. وأنت يا رامون، عندما مات ستالين - توقف لبرهة كي يحسب، ثم تابع بشيء من الارتباك: - يا إلهي، كنتَ آنذاك قد ولدتَ بالفعل!

- أخجل من ذلك، لكنه صحيح.

- تابع شارل وهو لم يزل يوجّه حديثه لرامون: إذا لم أخطىء، وقَّع جدّك مع مثقفين آخرين عريضة لدعم ستالين، بطل التقدّم العظيم.

- اعترف رامون: أجل.

- كان والدك حسبَ تصوّري متشكِّكاً حياله، وجيلك أيضاً

كان أكثر تشككاً، أما بالنسبة إلى جيلي، فأصبح مجرم المجرمين.

- قال رامون: أجل، هذه هي الحال. يتلاقى الناس في الحياة، يُثرثرون ويتناقشون ويتشاجرون دون أن يدركوا أنهم يخاطبون بعضهم بعضاً من بعيد، كلّ واحد من مرصد ينتصب في موقع مختلف من الزمن».

قال شارل بعد برهة: «الزمن قصير. وبفضله نحن أحياء أولاً، أي: متّهمون وقضاة. ثم نموت، ونظلّ لبضع سنوات أيضاً مع أولئك الذين عرفونا، لكن سرعان ما يحدث تغيُّر آخر: يصبح الأموات أمواتاً قدامى، ولا يعود أحد يتذكرهم ويختفون في العدم؛ بيْد أنّ بعضهم، وهم قلة نادرة، يتركون أسماءهم في الذاكرة، وهؤلاء يتحولون إلى دمى بعد تجريدهم من أية شهادة صادقة ومن أية ذكرى واقعية... إنني يا أصدقائي مفتون بهذه الحكاية التي رواها خروتشوف في مذكراته، ولا يسعني أن أقاوم نفسي في أن أكتب على منوالها مسرحية لمسرح العرائس.

- قال كاليبان ساخراً: مسرح العرائس؟ ألا تريدها أن تُمَثَّل في المسرح الفرنسي؟

- قال شارل: لا، لأنه إذا مَثَّلَتْ كائنات إنسانية حكاية ستالين وخروتشوف، فسيكون ذلك تضليلاً. لا يحقّ لأحد أن يتظاهر باستعادة وجود إنساني لم يعُد موجوداً. لا يحقّ لأحد أن يخلق إنساناً من دمية».

تمرد في الحمامات

«استأنف شارل قائلاً: يعجبني رفاق ستالين. أتخيّلهم وهم يصرخون بتمرّد في الحمامات! لقد طال انتظارهم لهذه اللحظة الجميلة التي يمكنهم أن يقولوا فيها أخيراً ما يدور في ذهنهم بصوت عالٍ، لكن ثمة أمرٌ لم ينتبهوا له: كان ستالين يراقبهم وينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر أيضاً! كانت اللحظة التي ستذهب فيها عصابته إلى الحمامات ممتعة له أيضاً! يتراءى لي ذلك يا أصدقائي! ها هو يجتاز الرواق الطويل على رؤوس أصابعه بحذر، ثم يضع أذنه على باب الحمامات ويصغي. كان أبطال المكتب السياسي يصرخون ويضربون الأرض بأقدامهم ويلعنونه، وهو يستمع إليهم ويضحك. «كان يكذب! يكذب!» يزعق خروتشوف، ويتصادى صوته، أمّا ستالين، لم تزَل أذنه ملتصقة بالباب، أوه أراه، أراه، ستالين يستمتع بالسخط الأخلاقي لرفيقه، ويقهقه كالمجنون دون أن يحاول كبح رنين ضحكه، لأن أولئك الموجودين في الحمامات يزعقون هم أيضاً كالمجانين ولا يسعهم أن يسمعونه في غمرة ضوضائهم.

- قال آلان: أجل، سبق أن رويتَ لنا ذلك.

- أجل، أعرف، لكن الأهم، أي السبب الحقيقي الذي كان يجعل ستالين يؤْثِر أن يكرِّر ويحكي دوماً قصة الأربع والعشرين طيراً من الحجل ذاتها على جمهوره الصغير، لم أقله بعد. وهنا تكمن الحبكة الرئيسة لمسرحيتي.

- وما هو هذا السبب؟

- كالينين.

- سأل كاليبان: ماذا؟

- كالينين.

- لم أسمع بهذا الاسم من قبل!»

ومع أن آلان كان أصغر سناً بقليل من كاليبان، إلا أنه كان أكثر ثقافة منه، ويعرف هذا الاسم: «بالتأكيد هو من أطلق اسمه على مدينة ألمانية شهيرة أمضى فيها كانط حياته وتدعى اليوم كالينينغراد.

في هذه اللحظة تناهى إلى سمعهم صوت زمور قوي وفاقد الصبر.

«قال آلان: يجب أن أترككم. مادلين تنتظرني. إلى اللقاء في المرة القادمة!»

كانت مادلين تنتظره على دراجة نارية في الطريق. إنها دراجة آلان، لكنهما كانا يتقاسمانها.

في المرة التالية يلقي شارل على أصدقائه محاضرة عن كالينين وعن عاصمة بروسيا

«كانت المدينة البروسية تُدعى منذ نشأتها كوينغسبرك، وتعني «جبل الملك». وبعد الحرب العالمية الثانية فقط، أصبحت

كالينينغراد. وكلمة غراد في اللغة الروسية تعني مدينة. أي مدينة كالينين. كان القرن الذي حظينا بالعيش فيه مولهاً بتغيير الأسماء. غيروا اسم تساريتسين إلى ستالينغراد ومن ستالينغراد إلى فولغوغراد. وغيروا اسم سان بترسبورغ إلى بيتروغراد، ثم اسم بيتروغراد إلى لينينغراد، وفي النهاية لينينغراد إلى سان بترسبورغ. وغيروا تسمية شيمنيتز إلى كارل ماركس ستاد، ثم من كارل ماركس ستاد إلى شيمنيتز. وغيروا اسم كوينغسبير إلى كالينينغراد. . . لكن انتبه: ظلّ اسمها كالينينغراد وسيبقى إلى الأبد غير قابل للتغيير. لأن مجد كالينينغراد فاقَ كل الأمجاد الأخرى.

- سأل كاليبان: لكن من هو؟

- تابع شارل: إنه رجل دون سلطة حقيقية، دمية بريئة وبائسة، ومع ذلك ظلَّ لزمن طويل رئيس مجلس السوفييت الأعلى، أي من وجهة نظر بروتوكولية، أكبر ممثل للدولة. شاهدت صورته: مناضلٌ عماليٌّ عريق ذو لحية مدبَّبة، يرتدي سترة مهلهلة. إذاً أصبح كالينين عجوزاً وصارت البروستات المتورّمة عنده ترغمه على الذهاب للتبوّل أغلب الأحيان. أخذت تعتريه دوماً رغبة قوية ومفاجئة للتبول بحيث يضطر للإسراع إلى المبولة حتى أثناء مأدبة رسمية أو خلال إلقائه خطاباً على جمهور كبير. كان قد اكتسب مهارة فائقة في ذلك. ولم يزل جميع الروس يتذكرون حتى اليوم الاحتفال الكبير الذي حدث بمناسبة تدشين دار الأوبرا الجديدة في مدينة أوكرانية، وألقى

خلاله كالينين خطاباً احتفالياً مسهباً. اضطر أن يقطعه كلّ دقيقتين، وفي كل مرة يبتعد فيها عن المنبر، تبدأ الأوركسترا في عزف موسيقى فولوكلورية وتقفز راقصات باليه أوكرانيات جميلات وشقراوات إلى المسرح ويشرعن في الرقص. وحين يعود إلى المنصة، كان كالينين يُسْتَقبل دوماً بالتصفيق، وعندما يغادرها مجدّداً، تغدو عاصفة التصفيق أقوى وهي ترحِّب براقصات الباليه الجميلات، وكلما تسارعت وتيرة ذهابه وإيابه، طال أمد التصفيق وصار أقوى وأكثر حرارة لدرجة أن الاحتفال الرسمي تحول إلى صخبٍ مرحٍ ومجنون ومعربد لم تشهد الدولة السوفييتية أو تعرف مثله قط.

«للأسف، عندما كان كالينين يجد نفسه من جديد في دائرة أصدقائه الضيقة خلال الاستراحات، لم يكن هنالك أحد مستعد للتصفيق لتبوّله. كان ستالين يروي حكاياته بينما يبالغ كالينين في انضباطه إلى حدّ أنه لا يجد الشجاعة لإزعاجه بالذهاب إلى المرحاض والعودة منه. خاصة أن ستالين وهو يروي، كان يركِّز نظره عليه، وعلى وجهه الذي يزداد شحوباً وتعلوه تكشيرة متشنجة، وهذا ما كان يحرِّض ستالين على التمهُّل في سرده، وعلى إضافة أوصاف واستطرادات وإرجاء الخاتمة إلى اللحظة التي يسترخي فيها فجأة الوجه المتوتر مقابله، وتنمحي تكشيرته، وترتاح تعابيره، وتحيط برأسه هالة من السلام؛ عندئذٍ فقط، كان ستالين يعرف أن كالينين فقدَ مقاومته مرة أخرى، فينتقل بسرعة إلى الخاتمة، وينهض عن الطاولة، وينهي الجلسة بابتسامة ودية

ومرحة. وبعد ذلك ينهض الآخرون وينظرون بخبث إلى رفيقهم المسمّر خلف الطاولة أو خلف كرسي ليخفي بنطاله المبلل»

مكث أصدقاء شارل مذهولين وهم يتخيلون هذا المشهد، وبعد فترة صمت وجيزة قطع كاليبان هذا الصمت المسلي: «ولكن هذا لا يفسِّر البتّة سبب إعطاء ستالين اسم مريض مسكين بالبروستات لمدينة ألمانية، عاش فيها كل حياته الشهير... الشهير...

- همس له آلان: إيمانويل كانط....»

آلان يكتشف حنان ستالين المجهول

بعد أسبوع، عندما شاهد آلان رفاقه من جديد في حانة (أو عند شارل، لم أعد أعرف)، قطع ثرثرتهم على الفور: «أودّ أن أخبركم أنه ليس هناك بالنسبة لي أي غموض حول سبب إعطاء ستالين اسم كالينين لمدينة الشهير كانط. لا أعرف أي تفسير كان يمكنكم أن تجدوه أنتم أنفسكم، أما أنا فليس لديّ سوى تفسير واحد: كان ستالين يُكِنُّ حناناً استثنائياً لكالينين»

سرّته المفاجأة المرحة التي قرأها على وجوه أصدقائه، بل وألهمته: «أعرف، أعرف... كلمة حنان لا تتناسب مع سمعة ستالين، إنه إبليس القرن، أعرف، وحياته مترعة بالمؤامرات والخيانات والحروب والاعتقالات والاغتيالات والمجازر. لا أنكر ذلك، وإنما على العكس، أريد أن أشدِّد عليه لأُظهر بأكبر

قدر من الوضوح أن ستالين، إزاء هذا الثقل الكبير من القسوة التي اضطر لمكابدتها وارتكابها وعيشها، كان يستحيل عليه أن يتصرف بقدرٍ مماثل من التعاطف. فهذا يتجاوز قدراته الإنسانية! وحتى يستطيع أن يعيش حياته كما كانت، لم يكن بوسعه إلا أن يتخدر، ثم ينسى قدرته على التعاطف تماماً، لكن كل شيء كان يتغير إزاء كالينين، في تلك الفواصل الوجيزة بعيداً عن المجازر، في اللحظات العذبة من استراحات الثرثرة: كان يواجه ألماً مختلفاً تماماً، ألماً ضئيلاً، ملموساً، فردياً، مفهوماً. ينظر إلى رفيقه المتألم، وبدهشة عذبة، يحسّ أن شعوراً باهتاً ومتواضعاً وحتى مجهولاً ومنسياً على أية حال يستيقظ فيه: حب لإنسان يتألم. كانت هذه اللحظة في حياته العنيفة بمثابة راحة. كان الحنان يزداد في قلب ستالين بمعدل ازدياد ضغط البول نفسه في مثانة كالينين. وأن يكتشف مجدداً شعوراً كفّ عن الإحساس به منذ زمن طويل مَثَّلَ بالنسبة إليه جمالاً عصياً على الوصف.

«تابع آلان: هنا أرى التفسير الوحيد الممكن لإعادة التسمية الغريبة من كوينغسبرغ إلى كالينينغراد. حدث هذا قبل ثلاثين عاماً من ولادتي، ومع ذلك يمكنني تخيل الحالة: انتهت الحرب وضمّ الروس إلى إمبراطوريتهم مدينة ألمانية شهيرة واضطروا إلى إطلاق اسم روسي جديد عليها. وليس أي اسم! لا بد أن تستند التسمية الجديدة إلى اسم مشهور في أرجاء الكوكب وأن يُخْرِسَ ألقه الأعداء! ولدى الروس وفرة من مثل هذه الأسماء العظيمة! كاترين العظمى! بوشكين! تشايكوفسكي! تولوستوي! وهنا لا

أتحدث عن الشجعان الذين هزموا هتلر وكانوا مدلَّلين في كلّ مكان خلال تلك الحقبة! إذاً كيف نفهم أنّ ستالين اختار اسم شخص عديم الأهمية؟ وأنه اتخذ قراراً أحمق على نحو واضح؟ هذا يعني أنه لا توجد إلا أسباب حميمية وسرية. ونحن نعرفها: يشعر بالحنان حيال رجل تألَّم لأجله، وأمام ناظريه، ويريد أن يشكره على وفائه وأن يُسْعِدَه لقاء تفانيه وإخلاصه. وإذا لم أخطىء - ويمكنك يا رامون أن تصحِّح لي - كان ستالين خلال تلك الفترة الوجيزة من التاريخ رجل الدولة الأقوى في العالم. وهو يعرف ذلك. كان يشعر بفرحٍ ماكر لأنه الوحيد من بين جميع الرؤساء والملوك الذي يستطيع أن يسخر بوقاحة من وقار التصرفات السياسية العظيمة المحسوبة، والوحيد الذي يمكن أن يسمح لنفسه باتخاذ قرارٍ شخصي مطلق ومزاجي وغير معقول، وغريب على نحو ساطع وعابث على نحو رائع»

على الطاولة، ثمة زجاجة نبيذ أحمر مفتوحة. أصبح قدح آلان فارغاً الآن؛ فملأه ثانية وتابع: «وأنا أروي هذه الحكاية أمامكم الآن، أرى فيها معنى أعمق» ابتلع جرعة، ثم تابع: «يعاني حتى لا يلوث سرواله... إنه شهيد نظافته... يصارع البول الذي يُوْلد ويتزايد ويتقدّم ويهدِّد ويهاجم ويقتل... هل توجد بطولة أكثر تفاهة وأكثر إنسانية؟ إنني أسخر من الرجال العظماء المزعومين الذين تتوج أسماؤهم شوارعنا. أصبحوا مشهورين بفضل طموحاتهم وغرورهم وأكاذيبهم وصلفهم. كالينين وحده من سيظلّ اسمه بالذاكرة يُذَكِّرُ بمعاناة اختبرها كل

كائن إنساني، ويُذَكِّر بمعركة يائسة لم تسبِّب البؤس لأحد إلا لنفسه»

أنهى خطابه وسط تأثر الجميع.

قال رامون بعد برهة صمت: «إنك محق تماماً يا آلان. بعد موتي، أتمنى لو أستيقظ كل عشر سنوات لأتأكد إن كانت كالينينغراد لا تزال كالينينغراد. وطالما بقيت هذه هي الحال، سيظلّ في وِسْعي الشعور بشيء من التضامن مع الإنسانية، وسأعاود النزول إلى قبري وأنا متصالح معها»

الجزء الثالث

آلان وشارل يفكران بأمهاتهما دوماً

المرة التي أدهشه فيها سحر السُرَّة
هي عندما رأى أمه للمرة الأخيرة

بينما آلان يعود متمهلاً إلى منزله، راح يراقب الفتيات الشابات اللاتي يُظهرن جميعهن سراتهن العارية بين بنطال ذي حزام واطىء، وقميص قصير مقصوص، كأنَّ سلطة إغوائهن لم تعُد تتركز في أفخاذهن ولا في نهودهن، إنما في هذه الحفرة الدائرية الواقعة وسط الجسد.

هل أكرر؟ هل بدأتُ هذا الفصل بالكلمات ذاتها التي استخدمتها في بداية هذه الرواية؟ أعرف ذلك، لكنني حتى لو سبق أن تكلمتُ عن شغف آلان بلُغز السرة، لا أريد أن أخفي أن هذا اللغز ظَلَّ يشغله، كما انشغل بالكم أنتم أيضاً، شهوراً، إن لم يكن سنوات، بمشاكلكم ذاتها (بالتأكيد هي أتفه بكثير من المشكلة التي تستحوذ على تفكير آلان). وهو يتسكَّع في الشوارع، غالباً ما كان يفكر إذاً في السرة، دون أن يتضايق من تكرار ذاته، وحتى بعنادٍ غريب؛ لأنَّ السرة كانت توقظ فيه ذكرى بعيدة: ذكرى لقائه الأخير مع أمه.

كان عمره عشر سنوات يومذاك. وكان هو ووالده وحيدين يمضيان عطلة صيفية في فيلا مستأجرة لها حديقة وحوض سباحة. وكانت المرة الأولى التي تأتي فيها لزيارتهما بعد غياب سنوات عديدة. اختلت بزوجها السابق في الفيلا. أصبح الجو خانقاً حولها على مسافة كيلومتر. كم من الوقت بقيت؟ ليس أكثر من ساعة أو ساعتين على الأرجح، حاول آلان خلالهما أن يتسلى وحيداً في حوض السباحة. خرج منه عندما توقفت لوداعه. كانت وحدها. ماذا قالا؟ لا يعرف. يتذكر فقط أنها كانت جالسة على كرسي في الحديقة، وأنه هو، بسروال السباحة الذي لا يزال مبللاً، وقف مقابلها. ما قالاه بات طيّ النسيان، لكنها لحظة لا تُمحى من ذاكرته، لحظة ملموسة، ومحفورة بدقّة: جالسة على كرسيها، تحدِّق بإمعان في سرة ولدها. نظرة، ظلّ يشعر دوماً بها فوق بطنه. نظرة يصعب فهمها؛ بدت له مزيجاً غامضاً من العطف والازدراء؛ إذ اتَّخذت شفتا الأم شكل ابتسامة (ابتسامة عطف وازدراء)، ثم مالت نحوه دون أن تنهض عن كرسيها، ولمست سرَّته بسبابتها. نهضت بعد ذلك مباشرة وقبَّلته (هل قبلته حقاً؟ على الأرجح، لكنه ليس متأكداً من ذلك) وغادرت. ولم يرها ثانيةً قط.

امرأة تترجل من سيارتها

ثمة سيارة صغيرة تسير على طريق يحاذي النهر. في مكان

ما بين الضاحية والريف، حيث تندر المنازل وقلّما يَصدف المرء أحداً، وقد أضفَت برودة الصباح وحشة ويُتماً على هذا المشهد الطبيعي الخالي من السحر، تتوقف السيارة على طرف الطريق، تترجل منها امرأة شابة جميلة للغاية. أمر غريب: دفعت وراءها الباب بحركة لا مبالية حتى أنه لم ينغلق تماماً بالتأكيد. ماذا يعني هذا الإهمال الذي يستبعده عصرنا المليء باللصوص؟ هل كانت شاردة إلى هذه الدرجة؟

لا، ليس ثمة ما يوحي بأنها شاردة، لا بل يمكنك أن تقرأ التصميم على وجهها. فهذه المرأة ليست إلا إرادة، وهي تعرف ما تريد. تمشي قرابة مئة متر على الطريق نحو جسر فوق النهر، جسرٌ مرتفع، ضيق، ليس مخصصاً للمركبات. تخطو فوقه متجهة نحو الضفة الأخرى. تتلفت حولها مراراً، ليس كامرأة ينتظرها أحدهم، بل لتتأكد أن أحداً لا ينتظرها. تتوقف وسط الجسر. تبدو للوهلة الأولى مترددة، لكن لا، إنه ليس تردداً، ولا نقصاً مفاجئاً في التصميم، إنما على العكس، هي لحظة تزيد فيها من حدة تركيزها، وتشحذ عناد إرادتها. إرادتها؟ لنقل بدقّة أكبر: كراهيتها. أجل، فهذا التوقف الذي بدا تردداً هو في الحقيقة استحضار لكراهيتها حتى تبقى معها وتساندها ولا تغادرها لحظة واحدة.

تقفز من فوق سياج الجسر وتلقي بنفسها في الفراغ. تصدمها في نهاية سقوطها صلابة سطح الماء بقسوة، وتشلّها البرودة. ثوانٍ مديدة، ويرتفع وجهها، ولأنها سبّاحة ماهرة،

تستنفر كل حركاتها اللاإرادية ضد إرادة الموت. تغطسُ رأسها بالماء ثانية، وتجهد باستنشاق الماء وتحبس نَفَسَها. في هذه اللحظة، تسمع صرخة، صرخة قادمة من الضفة الأخرى. لقد رآها أحدهم. أدركت أن الموت لن يكون سهلاً وأن عدوّها الأكبر لن يكون منعكساتها اللاإرادية الخارجة عن سيطرتها كسبّاحة ماهرة وإنما شخص لم تحسب له حساباً. سيكون عليها أن تقاوم. أن تقاوم كي تنقذ موتها.

وتقتل

تنظر في اتجاه الصرخة. ثمة شخص يلقي بنفسه في الماء. تفكر: من سيكون الأسرع، هي في عزمها على البقاء تحت الماء واستنشاقه والغرق، أم هو الذي يقترب منها؟ وعندما توشك على الغرق، والماء يملأ رئتيها، وتضعف، ألن تغدو فريسة سهلة لمُنقذها؟ سوف يسحبها إلى الضفة الأخرى، وسيطرد الماء من رئتيها، وسيُجري لها تنفساً اصطناعياً، ويستدعي رجال الإطفاء والشرطة، وسوف تنجو وتصبح مثار سخرية إلى الأبد.

يصرخ الرجل: «توقفي، توقفي!»

فجأة تغيّر كل شيء: بدل أن تغوص في الماء، رفعت رأسها وتنفست بعمق لتستجمع قواها. ها هو الآن مقابلها. إنه فتى في سن المراهقة يريد أن يصبح مشهوراً، وأن تنشر الصحف صورته، ولا ينفك يردِّد: «توقفي، توقفي!» وها هو يمدّ يده

نحوها، لكنها بدل أن تتجنبها، تُمسكها وتشد عليها وتجذبها نحو قاع النهر. يصرخ مرة أخرى: «توقفي!» كما لو أنها الكلمة الوحيدة التي يعرف التلفظ بها، لكنه لن ينطقها ثانية، تتشبث بذراعه وتسحبه نحو القاع، ثم تستلقي بكلّ طولها على ظهر المراهق حتى يبقى رأسه تحت الماء. يقاوم ويتخبط، وها هو يستنشق الماء الآن، يحاول أن يضرب المرأة، لكنها تبقى متمدِّدة فوقه بحيث يعجز عن رفع رأسه ليستنشق الهواء، وبعد عدة ثوان، مديدة للغاية، توقف عن الحركة. احتفظت به هكذا لبعض الوقت، وحتى يمكن القول إنها كانت ترتاح وهي ممددة فوقه، هي المتعبة والمرتعشة، وبعد أن تأكدت أن الرجل تحتها لن يتحرك ثانية، تركته وقفلت راجعة نحو الضفة من حيث أتت كي لا يعلق بها أي أثر ممّا حدث.

لكن كيف؟ هل نسيت قرارها؟ لماذا لا تُغْرِقْ نفسها طالما أنّ مَن حاول أن يسرق منها موتها لم يعُد حياً؟ ولماذا بعد أن أصبحت حرة أخيراً لم تعُد تريد الموت؟

لقد شكلت الحياة التي استعادتها على نحوٍ غير متوقّع صدمة حطَّمت عزيمتها؛ ولم تعُد تجد القوة لتركيز طاقتها على موتها؛ أخذت ترتعش؛ وراحت تسبح بشكلٍ آلي، وهي مجرّدة على حين غرّة من كل إرادة ومن أي قوة، نحو المكان الذي تركت فيه سيارتها.

وتعود إلى المنزل

شيئاً فشيئاً، أحست أنّ الماء تناقص عمقه، تضع قدميها على القاع، وتنهض؛ وفي الطريق، لقد أضاعت حذاءها وهي تسبح ولم تعُد لديها القوة للبحث عنه؛ فخرجت من الماء بقدمين حافيتين وصعدت نحو الطريق.

أبدى لها العالم الذي تكتشفه من جديد وجهاً غير مضياف واستبدّ بها القلق على الفور: ليس لديها مفتاح السيارة! أين هو؟ ليس لتنورتها جيب. حين كانت ذاهبة إلى موتها، لم تعِر اهتماماً لما تخلَّت عنه في الطريق. وعندما خرجت من السيارة لم يكن المستقبل موجوداً. لم يكن لديها ما تخفيه. بينما يجب الآن، وعلى نحو مفاجئ، إخفاء كل شيء. وعدم ترك أي أثر. تصاعد قلقها: أين المفتاح؟ كيف سأصل إلى المنزل؟

ها هي قرب السيارة، تميل نحو الباب فينفتح في غمرة دهشتها. وها هو المفتاح المتروك على لوحة القيادة ينتظرها. تجلس وراء المقود وتضع قدميها المبللتين الحافيتين على الدواسات. لم تزل ترتعش. ترتعش أيضاً من البرد. تبلَّلَ قميصها وتنورتها بمياه النهر القذرة التي تقطر منها. تدير المفتاح وتنطلق.

من أراد أن يفرض عليها الحياة مات غرقاً. ومن أرادت قتله لم يزل حياً في أحشائها. انمحت فكرة الانتحار إلى الأبد. لا محاولات أخرى. مات الشاب وبقي الجنين حياً، وستفعل ما

بوسعها حتى لا يكتشف أحد ما جرى. ترتعش وتستيقظ إرادتها، ولا تفكر إلا بمستقبلها القريب: كيف ستخرج من السيارة دون أن يلاحظها أحد؟ كيف ستتسلل خفية في ثوبها المبلل تماماً أمام حجرة البواب؟

في هذه اللحظة شعر آلان بضربة قوية على كتفه.

«انتبه يا أحمق!»

التفت وشاهد على الرصيف بجانبه فتاة شابة تتجاوزه بخطى سريعة وحيوية.

«المعذرة»، نَدَه عليها (بصوته الخفيض)

«مغفل» ردّت الفتاة بصوت عالٍ (ودون أن تلتفت)

المعتذرون

في شقته الصغيرة، تأكد آلان أنه لم يزل يشعر بالألم في كتفه وقال في سرّه إن المرأة الشابة التي دفعته أول أمس في الطريق بهذه القوة فعلت ذلك عمداً بلا شك. لم يسعه أن ينسى صوتها الحاد الذي نعته «أحمق» وسمع من جديد صوته المتوسل «المعذرة» متبوعاً مرة أخرى أيضاً بجواب «مغفل»، لقد اعتذر من أجل لا شيء! لماذا لديه دوماً ردّ الفعل الغبي في طلب المغفرة؟ لم تبارحه هذه الذكرى وشعر بحاجة إلى الحديث مع شخص ما. اتصل بمادلين. لم تكن في باريس وكان هاتفها النقال مغلقاً. اتصل عندئذٍ برقم شارل واعتذر فور أن سمع صوته: «لا تغضب، إنني متكدِّر المزاج وأحتاج إلى الثرثرة.

- حسن. أنا متكدر المزاج أيضاً. لمَ أنتَ متكدر؟

- لأنني حانق على نفسي. لماذا أوظِّف كل مناسبة كي أشعر بالذنب؟

- هذا ليس مهماً.

- أن تَشعر بالذنب أو تُشْعَرَ به. أعتقد أن كل شيء يكمن هنا. فالحياة هي صراع الجميع ضد الجميع. هذا معروف، لكن كيف يتجلى هذا الصراع في مجتمع متمدِّن إلى هذا الحدّ أو ذاك؟ لا يمكن للناس أن يهاجموا بعضهم بعضاً عندما يلتقون. يحاولون بدلاً من ذلك أن يلقوا على الآخرين عار الشعور بالذنب. وسيفوز من ينجح في جعل الآخر مذنباً. وسيخسر من يعترف بخطئه. وأنت تسير في الطريق مستغرقاً بأفكارك، تتقدم نحوك فتاة كأنها وحيدة في هذا العالم، ودون أن تنظر يُمنة أو يُسرة تسير إلى الأمام بشكلٍ مستقيم. تصدمك. وهذه هي لحظة الحقيقة. من سيشتم الآخر ومن سيعتذر؟ إنها حالة نموذجية: في الواقع، كلّ واحد منهما صادم ومصدوم في آنٍ معاً. مع ذلك، ثمة من يعتبرون أنفسهم فوراً وعلى نحوٍ عفوي صادمين، أي مذنبين. وثمة آخرون يرون أنفسهم فوراً وعلى نحوٍ عفوي كمصدومين، أي بحسب قانونهم، مستعدين لاتهام الآخر وإنزال العقاب به. أنت، هل كنت في هذه الحالة ستعتذر أم تتهم؟

- أنا كنت سأعتذر بالتأكيد.

- آه يا عزيزي، أنت تنتمي إلى جيش المعتذرين. تعتقد أن بوسعك إرضاء الآخر بالاعتذارات.

- بالتأكيد.

- لكنك مخطئ. من يعتذر فإنه يعترف بذنبه. وحين تعترف بذنبك، تشجِّع الآخر على الاستمرار في إهانتك وفضحك على الملأ حتى مماتك. هذه هي العواقب الوخيمة للاعتذار الأول.

- هذا صحيح. يجب على المرء ألّا يعتذر، لكنني أفضِّل عالماً يعتذر فيه الناس جميعاً، بلا استثناء، وبلا داع، وبإفراط، ومن أجل لا شيء، عالمٌ تتزاحم فيه الاعتذارات. . . .

- دُهِشَ آلان: أنت تقول هذا بنبرة حزينة جداً.

- منذ ساعتين لم أفكِّر إلا بأمي.

- ماذا حدث؟

الملائكة

- إنها مريضة. أخشى أن الأمر خطير. اتصلت بي منذ قليل.

- من تاربس؟

- أجل.

- أهي وحيدة؟

- أخوها عندها، لكنه أكبر سناً منها. أرغب أن أستقل السيارة في الحال للذهاب إليها، لكن هذا مستحيل. لدي عمل لا يمكنني إلغاءه. عملٌ يتَّسم بقدر كبير من الحماقة، لكن غداً، سأذهب. . .

- أمر مدهش. غالباً ما أفكر بأمّك.

- كنت ستحبها. إنها مرحة تحبّ المزاح. تعاني من صعوبة في المشي، لكننا نتسلى كثيراً.

- وعنها ورثت حبك للمزاح؟

- ربما.

- هذا غريب.

- لماذا؟

- بحسب ما تروي لي دوماً، أتخيلها كأنها خارجة من أشعار فرانسيس جام. ترافقها حيوانات متألمة وفلاحون عجائز. وسط الحمير والملائكة.

- قال شارل: أجل، هي هكذا» ثم بعد بضع ثواني: «لماذا قلت ملائكة؟

- وما الذي أدهشك؟

_ في مسرحيتي...» توقف لبرهة، ثم: «أنت تعرف، مسرحيتي لمسرح العرائس، ليست إلا مزحة، حماقة، لم أكتبها، أتخيلها فحسب، لكن ما عساي أفعل عندما لا يسليني أمر آخر، لذلك في الفصل الأخير من هذه المسرحية أتخيل ملاكاً.

- ملاك؟ لماذا؟

- لا أدري.

- وكيف تنتهي المسرحية؟

- حتى الآن، أعرف فقط أن ثمة ملاك في النهاية.

- وماذا يعني ملاك بالنسبة لك؟

- لستُ ضليعاً في اللاهوت. الملاك، أتخيله حسب ما توحي به العبارة التي نقولها ونحن نشكر شخصاً على طيبته: «أنت ملاك» وهذا ما يقوله الناس لأمي غالباً. لهذا فوجئتُ عندما قلتَ لي إنك تتخيلها برفقة الحمير والملائكة. هي هكذا.

- أنا أيضاً، لستُ ضليعاً في اللاهوت. أتذكر فقط أنه ثمة ملائكة نزلوا من السماء.

- كرر شارل: أجل، ملائكة نزلوا من السماء.

- وماذا نعرف أيضاً عن الملائكة؟ أنّ قدّها أهيف...

- في الحقيقة، من الصعب تخيل ملاك له كرش.

- وأن لديهم أجنحة. وأنهم بيض. بيض. اسمع يا شارل، إذا لم أخطئ، ليس للملاك جنس... وربما هذا يفسر بياضه.

- ربما.

- ويفسر طيبته؟

- ربما.

ثم بعد برهة صمت، قال آلان: «هل للملاك سرة؟

- لماذا؟

- إذا لم يكن للملاك جنس، فهذا يعني أنه لم يولد من رحم امرأة.

- بالتأكيد لا.

- إذاً ليس لديه سرة.

- أجل، بلا سرة، بالتأكيد...»

فكَّر آلان بالمرأة الشابة التي لمست بسبباتها سرة ابنها ذي السنوات العشر قرب مسبحٍ لفيلا أثناء العطلة الصيفية وقال لشارل: «هذا غريب. فأنا أيضاً، منذ بعض الوقت، لا أكفّ عن تخيل أمي... في حالات ممكنة وفي حالات مستحيلة...

- لنتوقف هنا يا عزيزي! يجب أن أستعد لحفلة الكوكتيل اللعينة»

الجزء الرابع

الجميع يبحثون عن روح الدعابة

كاليبان

كان كاليبان في مهنته الأولى التي شكَّلت له آنذاك معنى حياته، ممثلاً؛ وقد أكَّد مهنته بشكلٍ مكتوب على أوراقه، ولأنه ممثّل بلا عمل، كان يتلقى منذ زمن طويل إعانة بطالة. وفي آخر مرة أتيح للناس رؤيته على مسرح، جسَّد دور كاليبان المتوحش في مسرحية **العاصفة** لشكسبير. كان يصرخ ويقفز كالمجنون، وقد طلى بشرته بمرهم بني وارتدى شعراً أسود مستعاراً على رأسه. كما أن أداءه سرَّ أصدقاءه إلى حدٍّ أنهم قرروا أن ينادونه بالاسم الذي يذكِّرهم بذلك الدور. ومذَّاك، صارت المسارح تتردَّد في تشغيله، وأخذت إعانته تقلّ من عام لآخر، حاله حال الآلاف من الممثلين الآخرين والراقصين والمغنين العاطلين عن العمل. وعندئذٍ، استخدمه شارل، الذي كان يكسب قوته من تنظيم حفلات الكوكتيل الخاصة، كنادل. وعلى هذا النحو استطاع كاليبان أن يكسب القليل من المال، لكنه فوق ذلك، ظلَّ

ممثلاً يبحث عن مهمته الضائعة، ورأى في عمله الجديد فرصة يستطيع خلالها أن يبدِّل هويته من حين إلى آخر. فهو الذي يمتلك أفكاراً جمالية ساذجة إلى حدٍّ ما (ألم تكن شخصية كاليبان شكسبير، مثله الأعلى، ساذجة أيضاً؟) كان يعتقد أنّ مهارة الممثل جديرة بالملاحظة بقدر ما تبتعد الشخصية التي يؤديها عن حياته الواقعية. لهذا أصرَّ على مرافقة شارل ليس باعتباره فرنسياً، وإنما بوصفه أجنبياً لا يعرف التحدُّث إلا بلغة لا يفهمها أحد من حوله. لذلك اضطرّ للعثور على مسقط جديد لرأسه، وربما بسبب بشرته السمراء قليلاً، اختار الباكستان. لمَ لا؟ فلا شيء أسهل من اختيار وطن أم، لكن اكتشاف لغته هو الصعب.

حاولوا، وأنتم ترتجلون، أن تتحدثوا لغة متخيلة ولو لمدة ثلاثين ثانية متواصلة!

ستكرِّرون في حلقة مفرغة المقاطع الصوتية ذاتها، وستنفضح ثرثرتك على الفور بوصفها دجلاً. أن يختلق المرء لغة غير موجودة، يُفرض عليه أن يعطيها مصداقية صوتية: أن يخلق تصويتاً خاصاً، وأن لا يلفظ «الألف» أو «الواو» كما يلفظها الفرنسيون؛ وأن يقرِّر على أيّ مقطع صوتي يستطيع النبر الصحيح. وجدير بالإقدام أيضاً، بالنسبة إلى طبيعة الكلام، أن يتخيل خلف هذه الأصوات العبثية بُنية نحوية وأن يعرف أية كلمة هي فعل وأيها هي اسم. وفي حال وجود صديقين، ينبغي تحديد دور الثاني، الفرنسي، أي شارل: ومع أنه لا يعرف التحدث

بالباكستانية، إلا أن عليه أن يعرف بضع كلمات منها، حتى يستطيعا في حالة طارئة أن يتفاهما حول الأساسي دون أن يتلفّظا بأية كلمة فرنسية. كان ذلك صعباً، لكنه مضحك. وللأسف، حتى الفكاهات الأكثر إدهاشاً لا تفلت من قانون الشيخوخة. وإذا كان الصديقان استمتعا خلال حفلات الكوكتيل الأولى، إلا أن الشك سرعان ما ساور كاليبان في جدوى هذه الخدعة المرهقة، لأنّ المدعوين لم يُظهروا أي اهتمام به، ولم يصغوا إليه نظراً إلى لغته غير المفهومة، واكتفوا بحركات بسيطة للإشارة إلى ما يرغبون بأكله أو شربه. وأصبح ممثلاً بلا جمهور.

السترات البيضاء والشابة البرتغالية

وصلا إلى شقة داريلو قبل أن تبدأ حفلة الكوكتيل بساعتين. قال شارل: «هذا مساعدي يا سيدتي. إنه باكستاني. أعتذر، إنه لا يعرف أي كلمة فرنسية»، وانحنى كاليبان باحتفالية أمام السيدة داريلو متلفظاً بعبارات غير مفهومة. واللامبالاة التي أبدتها السيدة داريلو بلطافة فاترة، والتي لم تعر هذه اللغة أي اهتمام، أكد شعور كاليبان بلا جدوى لغته المخترعة بمشقة واجتاحه الحزن.

ولحسن الحظ، واسَتْه متعة صغيرة بعد خيبة الأمل هذه مباشرة: فالخادمة التي أمرتها السيدة دراديلو أن تقوم على خدمة السيدين لم تستطع أن تحيد ببصرها عن شخص بمثل هذه

الغرابة. خاطبته مرات عديدة وعندما أدركت أنه لا يفهم إلا لغته الخاصة ارتبكت في البداية، واسترخَت بعد ذلك على نحو غريب. لأنها كانت برتغالية. وبما أن كاليبان حدَّثها بالباكستانية، فإنها حظيت بفرصة نادرة لتتخلى عن الفرنسية، اللغة التي لم تكُن تحبها، ولم تستخدم هي أيضاً إلا لغتها الأم. جعلهما تواصلهما بلغتين لا يفهمانهما قريبين بعضهما من بعض.

ثم توقفت شاحنة صغيرة أمام المنزل وأحضر منها مستخدمان كل ما طلبه شارل، زجاجات نبيذ وويسكي ولحم خنزير وسجق ومقبلات؛ ووضعاها في المطبخ. وبمساعدة الخادمة، فرش شارل وكاليبان مائدة طويلة، موضوعة في الصالون، بغطاء كبير ووضعا فوقه الصحون والأطباق والكؤوس والزجاجات. وبعد ذلك، عندما اقترب موعد حفلة الكوكتيل، انسحبا إلى حجرة صغيرة خصَّصتها لهما السيدة دارديلو. وأخرجا من حقيبة سترتين بيضاوين وارتدياهما. لم يكونا بحاجة إلى مرآة. نظر كلّ واحد منهما إلى الآخر ولم يتمكّنا من كبح ضحكة مكتومة. كانت هذه بالنسبة إليهما لحظة متعة خاطفة. وكانا ينسيان تقريباً أنهما يعملان بدافع الحاجة، ليكسبا لقمة العيش؛ ويراودهما انطباع، وهما يشاهدان بعضهما بثياب التنكر البيضاء، أنهما يتسليان.

ثم ابتعد شارل نحو الصالون، تاركاً كاليبان يعدُّ الأطباق الأخيرة. دخلت فتاة صغيرة واثقة من نفسها إلى المطبخ والتفتت نحو الخادمة: «يجب ألّا تظهري في الصالون ولو لثانية واحدة!

إن رآك مدعوونا فسيهربون!» ثم انفجرت ضاحكة وهي تنظر إلى شفتَي البرتغالية: «أين وجدت هذا اللون؟ إنك تشبهين طائراً أفريقياً! ببغاء البورنبو بوبو!» وغادرت المطبخ ضاحكة.

وعيناها تدمعان، قالت البرتغالية لكاليبان (بالبرتغالية): «السيدة لطيفة! أمّا ابنتها! ما أخبثها! قالت هذا لأنك تعجبها! هي دوماً شريرة معي في حضرة الرجال! تستمتع بإهاناتي أمام الرجال!»

لم يستطع كاليبان أن يجيبها بشيء، فداعب شعرها. رفعت بصرها نحوه وقالت (بالفرنسية): «انظر، هل أحمر شفاهي قبيح إلى هذا الحد؟»

راحت تدير وجهها ذات اليمين وذات الشمال حتى يتمكن من رؤية امتداد شفتيها. قال لها بالباكستانية: «لا، لون أحمر شفاهك اختير بعناية...»

كان كاليبان بسترته البيضاء يبدو للخادمة أكثر مهابة وأكثر غرابة، وقالت له (بالبرتغالية): «إنني في غاية السعادة لوجودك هنا»

وهو، انساق لبلاغته (ودوماً بالباكستانية): «ليس فقط شفتيك، بل ووجهك وخدك، وأنت برمتك كما أراك أمامي، جميلة، جميلة جداً...

- أجابت الخادمة بالبرتغالية: أوه، ما أسعدني بوجودك هنا».

الصورة المعلقة على الجدار

هذه الأمسية متشحة بالحزن، ليس فقط عند كاليبان الذي لم يعد يرى أية فكاهة في خداعه وحسب، وإنما عند كل شخصياتي. حزينة عند شارل الذي كاشف آلان بخوفه على أمه المريضة؛ عند آلان المتأثر من حب الأبناء لوالديهم، الحب الذي لم يعشه قط، والذي تأثر أيضاً من صورة عجوز ريفية تنتمي إلى عالم يجهله لكنها توقظ فيه حنيناً. ولسوء حظه، عندما رغب في إطالة الحديث، كان شارل مستعجلاً ما اضطره إلى قطعه. تناول آلان عندئذ هاتفه النقال ليتصل بمادلين. لكن الهاتف رن ورن؛ بلا جدوى. وكما يفعل غالباً في مثل هذه اللحظات، التفت ببصره نحو صورة معلقة على الجدار. لم يكن ثمة صورة في الاستديو الذي يقطنه، إلا تلك الصورة: وجه امرأة شابة، وجه أمه.

كانت قد تركت زوجها بعد بضعة أشهر من ولادة آلان، لكنه لم يأتِ على ذكرها بالسوء قط، نظراً إلى رصانته. كان رجلاً لطيفاً ووديعاً. ولم يفهم الطفل كيف استطاعت امرأة أن تتخلى عن رجل بهذا اللطف وهذه الوداعة ولم يفهم أيضاً كيف أمكَنَها أن تتخلى عن ابنها الذي اتَّسم هو أيضاً (كان يعي ذلك منذ طفولته (إن لم يكن منذ بداية إدراكه) باللطف والوداعة.

- سأل والده آنذاك: «أين تعيش؟

- في أميركا على الأرجح

- ماذا تعني «على الأرجح»؟
- لا أعرف عنوانها
- لكن من واجبها أن تعطيه لك.
- لا يترتب عليها أي واجب نحوي.
- لكن نحوي أنا؟ ألا تريد معرفة أخباري؟ ألا تريد معرفة ماذا أفعل؟ ألا تريد أن تعرف كيف أفكر فيها؟».

ذات يوم، فقد الأب السيطرة على نفسه: «ما دمتَ تلحّ، سأخبرك بالأمر: لم ترغب أمك في ولادتك قط. لم تكن تريد لك أن تتنزه هنا وأن تغوص في هذه الأريكة التي تشعر بالراحة عليها، لم تكن ترغب بك. هل فهمت أخيراً؟»

لم يكن الأب شخصاً عدوانياً، لكنه رغم كل تحفّظه، لم يفلح في إخفاء خلافه المقدّس مع امرأة كانت ترغب في منع ولادة كائن إنساني في العالم.

سبق أن تحدثتُ عن لقاء آلان الأخير بوالدته قرب حوض السباحة في الفيلا المستأجرة لقضاء العطلة الصيفية. كان آنذاك في سن العاشرة. ومات أبوه وهو في سنّ السادسة عشر. وبعد بضعة أيام من الجنازة، انتزع صورة والدته من ألبوم العائلة وأطرها، ثم علّقها على الحائط. لماذا لم يعلق صورة لوالده في الاستديو الذي يقطنه؟ لا أدري. هل هذا غير منطقي؟ بالطبع. غير عادل؟ دون أدنى شك، لكن هذا هو واقع الحال: على جدران الاستديو لم تعلّق إلّا صورة واحدة: صورة أمه. وهو يكلمها من حين لآخر:

كيف يولد معتذر

«لماذا لم تجهضي؟ هل منعك عن ذلك؟

خاطبه صوت من الصورة:

«لن تعرف ذلك أبداً. كلّ ما تخيلته عني ليس سوى حكايات خرافية، لكنني أحب حكاياتك الخرافية. حتى عندما صنعْتَ مني قاتلة أغرقَتْ شاباً في النهر. كل شيء يمتّعني. استمرّ يا آلان. ارِوِ! تخيل! إنني أصغي»

وتَخَيَّلَ آلان: تخيل أباه فوق جسد أمه. أخبرته قبل المضاجعة: «لم أتناول حبة منع الحمل، فاحذر!». طمأنها. عندئذٍ ضاجعته دونما حذر، وعندما رأت اللذة تطفو على وجه الرجل وتنداح، أخذت تصرخ: «انتبه!» ثم: «لا، لا، لا أريد! لا أريد!» لكن وجه الرجل أصبح أحمر أكثر فأكثر، أحمر ومنفراً، فدفعت جسده الثقيل الذي يشدها نحوه، تقاوم، تقاوم، إلا أنه يضمّها بقوة أكبر وتدرك فجأة أن ما يسكنه ليست النقطة العمياء للإثارة، إنما إرادة، إرادة راسخة ومتعمدة، أمّا ما يسكنها فهو أكثر من الإرادة، إنها الكراهية، كراهية تزداد ضراوة مع ازدياد خسارتها للمعركة.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تصور فيها آلان جماعهما؛ كان هذا الجماع ينومه مغناطيسياً ويجعله يعتقد أن كل كائن بشري هو نسخة عن تلك اللحظة التي حدث فيها الحمل. وقف أمام المرآة ونظر إلى وجهه ليجدَ عليه آثار الكراهية

المزدوجة والمتزامنة التي أدّت إلى ولادته: كراهية الرجل وكراهية المرأة في لحظة قذف الرجل؛ كراهية اللطافة والقوة الجسدية مقترنة مع كراهية الجرأة والضعف الجسدي.

وقال في سره إنّ ثمرة هذه الكراهية المزدوجة لا يمكن أن تكون إلا معتذراً: كان وديعاً ولطيفاً مثل والده؛ وسيظلّ دخيلاً كما رأته والدته. ومَن كان وديعاً ودخيلاً في آنٍ معاً فقد حُكِمَ عليه، بمنطق صارم، أن يعتذر طيلة حياته.

نظر إلى الوجه المعلق على الجدار وشاهد مرة أخرى أيضاً المرأة التي تدخل السيارة بفستانها المبلَّل، وهي مهزومة، وتتسلل أمام حجرة البواب دون أن يلاحظها أحد، وتصعد الدرج، وتدلف بقدمين حافيتين إلى الشقة التي ستمكث فيها حتى يخرج الدخيل من جسدها. وبعد ذلك ببضعة أشهر ستتخلى عن الاثنين.

رامون يصل إلى حفلة الكوكتيل متكدر المزاج

رغم شعور التعاطف الذي راوده نهاية لقائهما في حديقة لوكسمبورغ إلّا أن رامون لم يستطع أن يغير رأيه في أن دارديلو ينتمي إلى صنف من الناس لا يحبه. ومع أن لدى كليهما قاسم مشترك: شغفٌ لإبهار الآخرين؛ ومفاجأتهم بفكرة مسلية، وشغف لغزو امرأة تحت أنظارهم. إلّا أن رامون لم يكن نرجسياً. كان

يحب النجاح وهو خائف في الوقت ذاته من إثارة الحسد؛ ويستمتع حين يكون محطّ إعجاب، لكنه يفرّ من المعجبين. تَحَوَّلَ تحفّظه إلى حبّ للعزلة بعد أن لحقت به بضع إهانات في حياته الخاصة لا سيما في العام المنصرم حين اضطر للالتحاق بجيش المتقاعدين المشؤوم؛ وصارت صفاته الخارجة عن المألوف، التي كانت تجدد شبابه فيما مضى، تجعل منه الآن، رغم مظهره المضلل، شخصية غير آنية، خارج زمننا، أي عجوزاً.

لذلك قرَّر أن يقاطع حفلة الكوكتيل التي دعاه إليها زميله القديم (غير المتقاعد بعد) ولم يغير قراره إلا في اللحظة الأخيرة، عندما أقسم له شارل وكاليبان أن حضورة وحده سيجعل من مهمتهما كخادمين، المُضجِرة على نحوٍ متزايد، محتملة. مع ذلك، وصل متأخراً جداً، بعد انقضاء زمن طويل على إلقاء أحد المدعوين خطاباً على شرف المضيف. كانت الشقة مزدحمة. ولأن رامون لا يعرف أحداً فيها، توجّه نحو المائدة الطويلة التي يقدم صديقاه عليها المشروبات. وحتى يطرد المزاج السيئ، خاطبهما ببضع كلمات أراد أن يقلِّد بها الثرثرة الباكستانية. فأجابه كاليبان بتحوير أمين للثرثرة ذاتها.

ثم وهو يتجول بين هؤلاء الأشخاص المجهولين، حاملاً بيده كأساً من النبيذ، ومزاجه متكدر، جذبته جلبة بضعة أشخاص التفتوا نحو باب الرواق، الذي ظهرت فيه امرأة فارغة القوام وجميلة، في الخمسينيات من عمرها. دسَّت يدها في شعرها عدة مرات وهي تُميل رأسها إلى الخلف، ورفعته وتركته يسقط من

جديد بأناقة، وعرضت بشهوانية التعبير التراجيدي لوجهها على كلّ واحد؛ لم يسبق لأي من المدعوين أن التقاها، لكنهم جميعاً كانوا يعرفونها من الصور. إنها فرانك. وقفت أمام المائدة الطويلة ودلت كاليبان، بتركيز شديد، على قطع الخبز المختلفة التي تفضِّلها.

امتلأ صحنها على الفور وفكَّر رامون بما رواه له دارديلو في حديقة لوكسمبورغ: فقدت رفيقها الذي أحبَّته بشغفٍ إلى حدّ أن حزنها في لحظة موته، وبفضل قرارٍ سحري من السماء، استحال إلى نشوة وتضاعفت رغبتها بالحياة. راح يراقبها: وضعت قطع الخبز في فمها وأخذ وجهها يختلج بحركات المضغ القوية.

عندما لمحت ابنة دارديلو (وكان رامون يميزها من منظرها) الممثلة الشهيرة الفارعة القوام، توقف فمها (كانت هي أيضاً تمضغ شيئاً ما) وبدأت ساقاها تهرولان: «عزيزتي!» وأرادت تقبيلها إلا أن الصحن الذي تمسكه المرأة المشهورة منعها من ذلك.

كررت: «عزيزتي» بينما تضع فرانك في فمها كتلة كبيرة من الخبز والسجق. ولأنها لم تعد قادرة على ابتلاع كل شيء، استخدمت لسانها لتدفع اللقمة في الفراغ ما بين الأضراس والخد؛ ثم حاولت بجهد أن تقول بضع كلمات للفتاة التي لم تفهم منها شيئاً.

تقدم رامون خطوتين ليراقبهما من كثب. ابتلعت الفتاة دارديلو ما كان في فمها وأعلنت بصوت رنان: «أعرف كل

شيء، أعرف كل شيء! لكننا لن نتركك وحيدة أبداً! أبداً!».

وبينما تحدّق فرانك بعينيها في الفراغ (أدرك رامون أنها لا تعرف مَن هي التي كلّمتها)، مررت جزءاً من اللقمة إلى وسط فمها، ومضغتها، وابتلعت نصفها وقالت: «الكائن الإنساني ليس إلّا شعوراً بالوحدة.

- هتفت الشابة دارديلو: أوه، هذا صحيح.

- أضافت فرانك: وحيد يحيط به وحيدون» ثم ابتلعت بقية اللقمة واستدارت وذهبت إلى مكان آخر.

ارتسمت ابتسامة خفيفة مسلية على وجه رامون، دون أن يشعر بها.

آلان يضع زجاجة أرمانياك فوق الخزانة

حين أضاءت هذه الابتسامة الخفيفة وجه رامون على نحو مفاجىء، قطع رنين جرس الهاتف تداعيات آلان حول أصل المعتذر. عرف على الفور أنها مادلين. من الصعب أن نفهم كيف يمكنهما أن يتحدثا سوية دوماً ولزمن طويل وبمثل هذه المتعة وليس لديها إلا القليل من الاهتمامات المشتركة. عندما شرح رامون نظريته عن المراصد المنتصبة والمتناثرة في نقاط مختلفة من التاريخ، والتي يتحدث الناس من فوقها مع بعضهم بعضاً دون أن يتمكنوا من فهم بعضهم البعض، تذكر آلان صديقته على الفور لأنه عرف بفضلها أنه حتى في حوار بين عاشقين

حقيقيين، لكن تاريخ ميلاد أحدهما يبعد كثيراً عن تاريخ ميلاد الآخر، فإن هذا الحوار ليس إلا تشابك مونولوجين يفسح كل منهما للآخر حيزاً واسعاً من عدم الفهم. لذلك لم يتسن له قط أن يعرف، مثلاً، هل كانت مادلين تشوه أسماء الرجال المشهورين فيما مضى لأنها لم تسمع بهم قط أم أنها كانت تحرفها عمداً لتُفْهِمَ جميع الناس أنه ليس لديها أدنى اهتمام بما حدث قبل حياتها الخاصة. هذا لم يضايق آلان، بل سلاه أن يكون بصحبتها كما هو عليه حالها، واستطاع أن يشعر بالسعادة بالقدر ذاته بعد ذلك، عندما كان يجد نفسه في عزلة في شقته الصغيرة التي عَلَّقَ فيها ملصقات منسوخة عن لوحات بوش وغوغان (ولا أدري من أيضاً) وهم من حددوا برأيه عالمه الخاص.

راودته دوماً فكرة غامضة بأنه لو وُلد قبل ستين عاماً، لكان فناناً. فكرة غامضة حقاً، لأنه لا يعرف ما تعنيه كلمة فنان اليوم: أهو رسام تحوّل إلى صانع خزائن زجاجية؟ أم هو شاعر؟ هل لا يزال يوجد شعراء؟ وما أمتعه خلال هذه الأسابيع الأخيرة، هو مشاركته في فنتازيا شارل، في نصه لمسرح العرائس، في هذا الهراء الذي سحره بالضبط لأنه لم يكن له أي معنى.

كان يعرف حق المعرفة أنه لن يسعه أن يكسب قوت يومه من العمل الذي يحب ممارسته (لكن هل كان يعرف ما هو العمل الذي يحب ممارسته؟) لذلك اختار بعد إنهاء دراسته وظيفة اضطرته أن يُظْهِرَ فيها، ليس أصالته وأفكاره ومواهبه، وإنما

ذكاءه فقط، أي تلك المهارة القابلة للقياس حسابياً التي لا تتبدى عند مختلف الأفراد إلا كمياً، أحدهما يملك منها أكثر، والآخر أقل، وآلان على الأخص يملك منها أكثر، بحيث يحصل على مبالغ جيدة تتيح له أن يشتري لنفسه من حين إلى آخر زجاجة أرمانياك. وقبل بضعة أيام اشترى زجاجة عندما شاهد على لاصقها تاريخ عام ولادته ذاته. وسمح لنفسه آنذاك أن يفتحها يوم عيد ميلاده ليحتفل مع أصدقائه على شرفه، على شرف شاعر عظيم أقسم ألّا يكتب أي بيت شعر أبداً بسبب تبجيله المهذب للشعر.

وهو يشعر بالسعادة والمرح تقريباً بعد ثرثرته المديدة مع مادلين، صعد فوق كرسي حاملاً زجاجة الأرمانياك ووضعها فوق الخزانة (المرتفعة جداً). ثم جلس على الأرض واتكأ على الجدار وركّز نظرته عليها، فحوّلتها رويداً رويداً إلى ملكة.

دعوة كاكوليك إلى روح الدعابة

بينما راح آلان ينظر إلى الزجاجة فوق الخزانة، لم يكفّ رامون عن لوم نفسه لوجوده هناك حيث ينبغي ألّا يكون؛ كان جميع هؤلاء الناس يزعجونه وحاول على الأخص أن يتجنّب لقاء دارديلو؛ وفي تلك اللحظة، رآه على مسافة أمتار منه، مقابل فرانك، وهو يحاول أن يفتنها بفصاحته؛ ولكي يبتعد، التجأ رامون مرة أخرى إلى قرب المائدة الكبيرة حيث كان كاليبان

يسكب نبيذ البوردو في كؤوس ثلاثة مدعوين، وراح يُفهمهم بحركاته وإيماءاته أن النبيذ من نوعية نادرة. ولأنهم يتصرفون بلباقة، رفع السادة أقداحهم، وأدفؤوها لبرهة مديدة في أكفهم، ثم احتفظوا بجرعة في أفواههم، وأبدى كل واحد منهم للآخر وجهاً عَبَّرَ في البداية عن التركيز الشديد، ثم عن إعجاب مندهش. وانتهوا إلى أن يعلنوا بصوت جهوري افتتانهم. استغرق كل ذلك قرابة الدقيقة، إلى أن قطع حديثهم المفاجئ حفلة التذوق هذه، وراود رامون، الذي يراقبهم، انطباع بأنه يشهد جنازات وأن ثلاثة حفاري قبور يدفنون طعم النبيذ المهيب ويهيلون التراب والغبار على نعشه من مرافعاتهم، وارتسمت مرة أخرى أيضاً ابتسامة مسلية على وجهه وسمع في اللحظة ذاتها صوتاً هامساً، بالأحرى كان صفيراً أكثر منه كلاماً، قادماً من وراء ظهره: «رامون! ماذا تفعل هنا؟»

التفت: «كاكوليك! وماذا تفعل هنا أنت؟

- أجاب: أبحث عن صديقة جديدة، وأشرق وجهه الصغير، غير الجذاب على نحو جلي.

- قال رامون: ما زلتَ يا عزيزي كما أعرفك.

- كما تعلم، لا يوجد ما هو أسوأ من الضجر. لهذا السبب أبدِّل الصديقات. ولولا ذلك، لما كانت هناك روح دعابة!

- هتف رامون كأن هاتين الكلمتين أثارتاه: آه، روح الدعابة. أجل، أنتَ قلت ذلك، روح الدعابة! هذا هو المُراد ولا شيء آخر! آه، كم يسعدني أن أراك! تحدثتُ منذ بضعة أيام

إلى أصدقائي عنك، أوه صديقي كاكي، صديقي كاكولي، لدي كثير من الأمور يجب أن أخبرك بها. . .»

وفي اللحظة ذاتها، شاهد على بعد خطوات منه وجهاً جميلاً لامرأة شابة يعرفها؛ سَحَره ذلك؛ كأن هذين اللقائين العارضين، المرتبطين على نحوٍ سحري بالفترة الزمنية ذاتها، يشحنانه بالطاقة؛ وفي رأسه، رنّ صدى هاتين الكلمتين «روح الدعابة» كأنه نداء. «قال لكاكوليك: اعذرني، سنتكلم فيما بعد، أما الآن. . . أنت تفهم. . .»

ابتسم كاكوليك: «بالتأكيد أفهم! هيا، اذهب!»

«قال رامون للمرأة الشابة: تسعدني رؤيتك من جديد يا جولي. لم أقابلك منذ ألف عام.

– أجابت المرأة الشابة وهي تنظر في عينيه بوقاحة: هذا خطؤك.

– حتى هذه اللحظة، لم أكن أعرف أي سبب أخرق جاء بي إلى هذه الحفلة المشؤومة، وأخيراً عرفت.

– ضحكت جولي: وفجأة، الحفلة المشؤومة لم تعُد مشؤومة.

– قال رامون ضاحكاً هو أيضاً: أنتِ أزَلتِ الشؤم عنها، لكن ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟» وأومأت نحو حلقة مشهورة قديمة (قديمة جداً) منذ أيام الجامعة: «لدى هذه الحلقة دوماً ما تقوله» ثم بابتسامة واعدة: «أنا متلهفة لرؤيتك بعد هذه الأمسية. . .»

وهو في غاية البهجة، لمح رامون شارل خلف المائدة الطويلة، كانت نظراته الشاردة على نحو غريب تحدق إلى الأعلى. أثارت هذه الوضعية الغريبة فضوله وقال في سره: إن من دواعي سروري ألّا أهتم بما يحدث في الأعلى، ومن دواعي سروري أنني موجود هنا في الأسفل؛ ونظر إلى جولي تبتعد؛ كانت حركات خلفيتها تحيّيه وتدعوه.

الجزء الخامس

ريشة تحلق تحت السقف

ريشة تحلق تحت السقف

«. . . شارل . . . نظرته الشاردة على نحو غريب تحدق نحو الأعلى. . .» هذه هي الكلمات التي كتبتها في الفقرة الأخيرة من الفصل السابق، لكن ماذا كان شارل يراقب في الأعلى؟

شيءٌ صغيرٌ جداً يرتعش تحت السقف؛ ريشةٌ بيضاء في غاية الصغر تحلق ببطء، تنزل وتصعد. وخلف المائدة الطويلة المغطاة بالصحون والزجاجات والكؤوس، كان شارل واقفاً ساكناً، ورأسه منكس إلى الخلف بخفّة، بينما أخذ المدعوون، واحداً تلو الآخر، بمتابعة نظرته، وقد استثارت وضعيته فضولهم.

شعر شارل بالكرب وهو يتابع تحليق الريشة؛ وخطر بباله أنّ الملاك الذي فكّر به خلال الأسابيع الأخيرة يُخطره بهذه الطريقة أنه حاضرٌ هنا في مكان ما، قريب جداً. ولعله وهو فزعٌ قبل أن يُقْذَفَ به من السماء، ترك هذه الريشة الصغيرة للغاية، التي لا

تكاد تُرى، تفلتُ من جناحه، كأثرٍ من قلقه، وكذكرى من الحياة السعيدة المشتركة مع النجوم، وكبطاقة دعوة تُفَسِّرُ وصوله ولا بد، وتعلن النهاية التي تقترب.

إلّا أن شارل لم يكن مستعداً بعد لمواجهة النهاية؛ ووَدَّ لو يؤجِّلها إلى موعد لاحق. تبدَّت صورة أمه أمامه، فانقبض قلبه.

مع ذلك، كانت الريشة هناك، تصعد وتنزل من جديد، بينما في الجانب الآخر من الصالة، كانت فرانك، هي أيضاً، تنظر نحو السقف. رفعت يدها بسبابة منتصبة لتتمكن الريشة من الهبوط عليها، لكن الريشة تجنَّبت الإصبع وواصلت تيهها...

نهاية حلم

فوق يد فرانك المرفوعة، واصلت الريشة تسكُّعها وأتصوّر أنّ نحو عشرين رجلاً، متجمعين حول المائدة الكبيرة، كانوا يرْنون بأبصارهم نحو الأعلى، مع أنه ليس ثمة أي ريشة تحلق هناك؛ كانوا مضطربين وعصبيين لا سيما أنّ ما يُخيفهم ليس أمامهم (كعدوٍ يمكن قتله)، ولا تحتهم (كفخّ يمكن للشرطة السرية إحباطه)، لكنه في مكان ما فوقهم، يشكّل تهديداً غير مرئي، غير ملموس، غير مفسر، ولا يمكن إدراكه ولا معاقبته، وخفي على نحوٍ ماكر. نهض البعض عن كراسيهم دون أن يعرفوا أين يريدون الذهاب.

أرى ستالين، وهو جالس في نهاية الطاولة الكبيرة هادئ

الأعصاب، يتمتم: «اهدؤوا أيها الجبناء! ممّ تخافون؟» ثم بصوت أقوى: «اجلسوا، الجلسة لم تُرفع!»

يهمس مولوتوف قرب النافذة: «يجري التحضير لأمرٍ ما يا جوزيف، يُقال إنهم سيُنزلون تماثيلك» ثم يطأطئ رأسه بخضوع، بتأثير نظرة ستالين الساخرة وتحت وطأة صمته، ويعاود الجلوس على كرسيه خلف الطاولة.

قال ستالين عندما عاد الجميع إلى أماكنهم: «هذا ما يسمى نهاية حلم! جميع الأحلام تنتهي يوماً. هذا أمر مفاجئ بقدر ما هو محتوم. ألا تعرفون ذلك أيها الجهلة؟»

صمت الجميع، وحده كالينين لم يستطِع أن يتمالك نفسه فأعلن بصوتٍ جهوري: «مهما حدث، كالينينغراد ستظلّ كالينينغراد إلى الأبد!

- أجاب ستالين بلهوٍ متزايد: أنت محق. وتغمرني السعادة لمعرفة أنّ اسم كانط سيظلّ مرتبطاً باسمك إلى الأبد. لأنه كما تعلم، كانط يستحق ذلك تماماً» وتصادت ضحكته، المنفردة بقدر ما هي مرحة، في الصالة الكبيرة لفترة مديدة.

تقاسيم رامون الحزينة عن نهاية الفكاهات

يتردد صدى ضحك ستالين البعيد في الصالة بشكل خافت. لا يزال شارل خلف مائدة المشروبات الطويلة يحدِّق ببصره في الريشة فوق سبابة فرانك المنتصبة، بينما راح رامون، وسط

جميع هذه الرؤوس الملتفتة إلى الأعلى، يتلذَّذ بأنه سيتمكن في اللحظة القادمة من أن يغادر مع جولي بمنتهى الهدوء، ودون أن يراه أحد. بحث عنها ذات اليمين وذات الشمال، لكنها لم تكن موجودة. كان لا يزال يسمع صوتها؛ ولم تزل كلماتها الأخيرة ترن كأنها دعوة. ولم يزل يرى خلفيتها الرائعة تبتعد وهي ترسل له تحياتها. ماذا لو أنها ذهبت إلى المرحاض؟ لتُصلح زينتها؟ دلف إلى رواق ضيق وانتظر أمام الباب. خرجت عدة سيدات، ونظرن إليه بريبة، لكنها لم تظهر. صار الأمر في غاية الوضوح. لقد غادرت بالفعل. ورفضت استقباله. وعلى الفور، لم تعتَرِه إلا رغبة بمغادرة هذا الحفل الكئيب، مغادرته بلا إبطاء، ومباشرة، وتوجه نحو المخرج، لكن على بعد خطوات من هناك، ظهر أمامه كاليبان يحمل طبقاً: «يا إلهي، رامون، ما أشدّ حزنك! تناول بسرعة قدح ويسكي»

كيف يستاء صديق؟ لكن لقاءهما المفاجئ اتَّسم بسحر لا يُقاوم: فما دام جميع البلهاء من حوله، كالمنوَّمين مغناطيسياً، يحدقون بأنظارهم نحو الأعلى، نحو المكان السخيف ذاته، يمكنه أن يبقى في نهاية المطاف لوحده مع كاليبان، في الأسفل على الأرض، وبمنتهى المودّة؛ كما على جزيرة الحرية. توقفا، وتلفظ كاليبان عبارة باللغة الباكستانية ليقول شيئاً ما مرحاً.

أجابه رامون (بالفرنسية): «أهنئك يا عزيزي على أدائك اللغوي الرائع، لكنك بدلاً من أن تبهجني، تغرقني من جديد في حزني»

تناول قدح ويسكي من فوق الطبق، تجرَّعه وأعاده، وأخذ قدحاً آخر واحتفظ به في يده: «اختلقتَ أنت وشارل خدعة اللغة الباكستانية لتتسلّيا أثناء حفلات الكوكتيل الاجتماعية التي لستما فيها إلا خادمَين مسكينين للأدعياء. لا بد أنّ متعة الخداع تحميكما. فضلاً عن أن هذه كانت استراتيجيتنا جميعاً. أدركنا منذ زمن طويل أنه لم يعُد بالإمكان قلب هذا العالم، ولا تغييره إلى الأفضل، ولا إيقاف جريانه البائس إلى الأمام. لم يكن هناك سوى مقاومةٍ وحيدة ممكنة. ألّا نأخذه على محمل الجد، لكنني أرى أنّ مزحاتنا فقدت سلطتها. إنك تُرغم نفسك على التحدث بالباكستانية حتى تتسلى. دون جدوى. ولا تشعر جراء ذلك إلا بالتعب والضجر»

توقف لبرهة ورأى أن كاليان وضع سبابته على شفتيه.

«ماذا حدث؟»

أومأ كاليبان برأسه نحو رجل قصير وأصلع يبعد نحو مترين أو ثلاثة أمتار، هو الوحيد الذي لم يكن يرفع بصره نحو السقف وإنما ركزه عليهما.

«سأل رامون: وماذا في ذلك؟

- همس كاليبان: لا تتحدث بالفرنسية! إنه يصغي إلينا.

- لكن ما الذي يقلقك؟

- أرجوك: لا تتحدث بالفرنسية! يراودني انطباع منذ ساعة أنه يراقبني»

وهو يدرك القلق الحقيقي لصديقه، تفوه رامون ببضع كلمات لا تحتملها اللغة الباكستانية.

لم يتفاعل كاليبان معها، ثم قال بمنتهى الهدوء: «إنه ينظر الآن إلى مكان آخر» وأردف: «لقد ذهب»

شرب رامون قدح الويسكي وهو مضطرب، ووضعه فارغاً فوق الطبق وتناول بشكل آلي قدحاً آخر (الثالث الآن). وبعد ذلك قال بنبرة جدية: «أقسم لك أنني لم أكن أتخيل هذه الإمكانية، لكن في الواقع! ماذا لو اكتشف خادم أنك فرنسي! عندئذٍ ستصبح مشبوهاً بالتأكيد! سيظنّ بالطبع أن لديك سبباً مريباً لإخفاء هويتك! وسيُخبر الشرطة! ستتعرض للاستجواب! ستشرح أنّ لغتك الباكستانية كانت مزحة. سيضحكون: أيّ مراوغ غبي! كنت تخطّط لعمل سيئ بالتأكيد! وسيضعون الأصفاد في معصميك!»

شاهد القلق يتبدى من جديد على وجه كاليبان: «لكن لا، لكن لا، انسَ ما قلته للتو! إنني أتفوه بالترهات! إنني أبالغ!» ثم أضاف خافضاً صوته: «مع ذلك، أنا أتفهمك. أصبحت الفكاهات خطيرة. يا إلهي، عليك أن تعرف ذلك حق المعرفة! تَذَكَّرْ قصة الحجلات التي كان يرويها ستالين لرفاقه، وتذكرْ خروتشوف الذي كان يصرخ في المراحيض! إنه هو بطل الحقيقة العظيم الذي كان يبصق احتقاراً! كان هذا المشهد تنبؤياً! كان بحقّ فاتحة عصر جديد! عصر أفول الفكاهات! عصر ما بعد المزاحات!»

عبرت سحابة حزن صغيرة مرة أخرى أيضاً فوق رأس رامون، حين ظهرت من جديد في مخيلته، لمدة ثلاث ثواني، جولي وخلفيتها التي تغادر؛ شرب قدحه ووضعه، وتناول قدحاً آخر (الرابع) وأعلن: «صديقي العزيز، ثمة شيء واحد أفتقده: روح الدعابة!»

نظر كاليبان حوله مرة أخرى؛ لم يعد الرجل القصير الأصلع موجوداً؛ أراحه ذلك؛ فابتسم.

واستطرد رامون: «آه روح الدعابة! لم يسبق لك أن قرأتَ هيغل؟ بالتأكيد لا، وحتى لا تعرف من هو، لكن أستاذنا الذي علّمنا أرغمني قديماً على دراسته. قال هيغل في تفكيره حول الهزل إنّ الدعابة الحقيقية لا يمكن تصوّرها دون روح دعابة لانهائية، اصغِ جيداً: هذا ما قاله حرفياً: «روح دعابة لانهائية» «unendliche Wohlgemutheit». وليس التهكُّم ولا الهجاء ولا السخرية. ومن أعالي روح الدعابة اللانهائية فقط، يمكنك أن تراقب تحتك غباوة الناس الأبدية وتضحك منها»

ثم بعد برهة توقف، قال ببطء والقدح في يده: «لكن كيف وجدتها، روح الدعابة؟» شرب ووضع القدح الفارغ على الطبق. وَجَّهَ إليه كاليبان ابتسامة مودِّعة، استدار وابتعد. رفع رامون ذراعه نحو صديقه الذي يبتعد وصاح: «كيف وجدتها، روح الدعابة؟»

فرانك تغادر

وبدل أن يتلقى رامون إجابة، سمع صرخات وضحكات وتصفيقاً. التفت برأسه نحو الجهة الأخرى من الصالة، هبطت الريشة أخيراً على إصبع فرانك المنتصبة، وهي لا تزل ترفع ذراعها إلى أعلى ما يمكن، كقائدة أوركسترا تقود الإيقاعات الأخيرة لسمفونية عظيمة.

هدأ الجمهور المستثار بالتدريج، وخطبت فرانك، ويدها لم تزَل مرفوعة، بصوتٍ رنان (رغم لقمة الكاتو التي لم تزَل في فمها): «أشارت لي السماء أن حياتي ستكون أجمل من ذي قبل. الحياة أقوى من الموت، لأن الحياة تتغذى على الموت!»

صمتت، ونظرت إلى جمهورها وابتلعت بقايا الكاتو الأخيرة.

صفَّق الناس حولها واقترب دارديلو من فرانك كأنه يريد تقبيلها رسمياً باسم الجميع، لكنها لم تره، ويدها لم تزل مرفوعة نحو السقف، والريشة بين إبهامها وسبابتها، توجهت ببطء، وبخطى راقصة، وهي تتمايل بلطف، نحو المخرج.

رامون يغادر

كان رامون يراقب المشهد مذهولاً وشعر بالضحك يولد في جسده من جديد. الضحك؟ هل لاحظته روح الدعابة الهيغلية من

علياءئها وقررت استقباله عندها؟ أليست دعوة للتشبث بهذا الضحك، والاحتفاظ به في ذاته لأطول فترة ممكنة؟

وقعت نظرته الخاطفة على دارديلو. كان قد نجح طيلة السهرة في تجنُّبه. هل يترتب عليه أن يذهب ليودِّعه بأدب؟ لا، لن يفسد اللحظة الفريدة والعظيمة لروح دعابته! ترتَّب عليه أن يخرج بأقصى سرعة.

نزل الدرج وهو مرحٌ وثملٌ تماماً، وخرج إلى الشارع وبحث عن سيارة أجرة عامة. كانت قهقهة تفلت منه من حين إلى آخر.

شجرة حواء

بينما راح آلان يبحث عن سيارة أجرة، كان آلان جالساً على الأرض في شقته الصغيرة، متكئاً على الجدار، مطأطئاً رأسه؛ ربما كان نائماً. أوقظه صوت أنثوي:

«أحبُ كل ما رويته لي من قبل، أحبُ كل ما تختلقه، وليس لدي ما أضيفه. إلا فيما يتعلق بالسرة ربما. بالنسبة لك، نموذج المرأة بلا سرة هو ملاك. بالنسبة لي، هي حواء، المرأة الأولى. لم تولد من رحم إنما من نزوة الخالق. ومن فرجها هي، فرج امرأة بلا سرة خرج أول حبل سري. وإذا كنتَ تؤمن بالكتاب المقدس، فقد خرجت من فرجها حبال أخرى يتشبث بطرف كل واحد منها رجل صغير أو امرأة صغيرة. كانت أجساد الرجال تقطع المتوالية ولا تقدم أية فائدة، بينما من فرج كل امرأة كان يخرج حبل آخر

وفي نهايته امرأة أخرى أو رجل آخر، وتكرر هذا ملايين وملايين المرات وتَحَوَّلَ إلى شجرة عظيمة، شجرة مؤلفة من عدد لا نهائي من الأجساد، شجرة تطاول أغصانها عنان السماء. تخيل أن هذه الشجرة العملاقة متجذرة في فرج امرأة واحدة صغيرة، المرأة الأولى، حواء المسكينة التي ليس لديها سرة.

«عندما أصبحتُ حاملاً، رأيتُ نفسي جزءاً من هذه الشجرة، معلقة بأحد حبالها، وأنتَ، قبل أن تولد، تخيلتك تحلق في الفراغ، متعلقاً بحبل يخرج من جسدي، ومنذ تلك اللحظة، حلمتُ بقاتل، موجود هناك في الأسفل، يذبح المرأة بلا سرة، تخيلتُ جسدها يحتضر، يموت، يتفسخ، حتى إن هذه الشجرة العملاقة التي تنبت منها، أصبحت فجأة بلا جذور وبلا أساس، وأخذت تتهاوى، وشاهدتُ عدداً لا يُحصى من أغصانها ينهمر كمطر غزير، افهمني جيداً، ليس اكتمال التاريخ الإنساني هو ما حلمتُ به، ولا إلغاء المستقبل، لا، لا، ما تمنيته هو الاختفاء الكلي للبشر مع مستقبلهم وماضيهم، مع بدايتهم ونهايتهم، مع كلّ فترة وجودهم، مع ذاكرتهم برمَّتها، مع نيرون ونابليون، مع بوذا والمسيح، تمنيتُ الفناء الكلي لشجرة متجذِّرة في بطنٍ صغير بلا سرة لأول امرأة حمقاء لم تكن تعرف ما تفعله، وأي أهوال كلفنا جماعها البائس الذي لم يمنحها أية متعة بالتأكيد...»

صَمَتَ صوت الأم، وأوقف رامون سيارة أجرة، والآن، المتكىء على الحائط، غفا من جديد.

الجزء السادس

سقوط الملائكة

وداعاً ماريانا

غادر آخر المدعوين، وأعاد كاليبان وشارل السترتين البيضاوين إلى الحقيبة ليصبحا من جديد كائنين عاديين. ساعدتهما البرتغالية وهي حزينة في جمع الصحون والأشواك والسكاكين والملاعق والزجاجات ووضعها كلها في زاوية المطبخ ليأخذها المستخدمون في اليوم التالي. وعن حسن نية، بهدف أن تكون مفيدة لهما، أخذت تمكث على الدوام قربهما، بحيث لم يكن بوسع الصديقين، المرهقين من الاستمرار في إصدار كلمات ساخرة ومخبولة، إيجاد ثانية واحدة، أو لحظة لتبادل فكرة معقولة بينهما باللغة الفرنسية.

بعد أن خلع كاليبان سترته البيضاء، بدا للبرتغالية كإله هبط إلى الأرض وأصبح مجرد رجل يمكن حتى لخادمة مسكينة أن تتحدث معه. سألته (باللغة الفرنسية): «أحقاً أنت لا تفهم شيئاً ممّا أقول؟» فأجابها كاليبان بشيء ما، بمنتهى البطء، ناطقاً كلّ مقطع لفظي بعناية، ونظرته مستغرقة في عينيها.

أصغت إليه بانتباه، كما لو أنّ هذه اللغة أصبحت بالنسبة لها

أكثر قابلية للفهم وهو يتلفظها ببطء، لكنها اضطرت للاعتراف بإخفاقها. قالت وهي حزينة: «حتى حين تتكلم بهدوء، لا أفهم شيئاً» ثم خاطبت شارل: «هل يمكنك أن تخبره بأمر ما في لغته؟

- العبارات البسيطة جداً والمتعلقة بالمطبخ فقط.

- تنهدت: أعرف.

- سأل شارل: هل يعجبك؟

- قالت وقد احمرت خجلاً: أجل.

- ماذا يسعني أن أفعل لك؟ هل يجب عليّ أن أخبره أنه يعجبك؟

- أجابت هازة رأسها بعنف: لا، قل له، قل له...»، فكرت: «قل له أنه يشعر ولا بد بالوحدة هنا في فرنسا. وحدة قاسية. كنت أريد أن أقول له أنه إذا ما احتاج إلى أمرٍ ما، إلى مساعدة، أو حتى إلى طعام... يمكنني...

- ما اسمك؟

- ماريانا

- أنتِ ملاك يا ماريانا. ملاك مفاجئ في وسط رحلتي.

- أنا لست ملاكاً»

وافقها شارل وقد شعر بالقلق فجأة: «آمل أنك لست كذلك. لأنني قبيل النهاية وحسب سأرى ملاكاً. وأودّ أن أُرجىء النهاية إلى أبعد ما يمكن»

وهو يفكر بأمه، نسي ما طلبته ماريانا منه؛ وتذكر ذلك عندما نبَّهته بصوت متوسل: «أرجوك يا سيدي أن تخبره...

- آه أجل» قال شارل وخاطب كاليبان بأصوات مختلفة عابثة.

اقترب هذا الأخير من البرتغالية. وقَبَّلَها على فمها، لكن الفتاة زَمَّت شفتيها وقُدَّتْ قبلتها من عفّة صارمة. ثم هربت راكضة.

أوقظ فيهما هذا الحياء حنيناً. نزلا الدرج وهما صامتان وجلسا في السيارة.

«كاليبان! استيقظ! إنها ليست لك!

- أعرف، لكن دعني أشعر بالأسف لذلك. إنها مفعمة بالطيبة، وأودّ، أنا أيضاً، أن أفعل شيئاً ما لأجلها.

- لكن لا يسعك أن تفعل شيئاً لأجلها. حضورك سيسبِّب لها الأذى فقط. قال شارل وانطلق.

- أعرف ذلك. لا حيلة لي في الأمر. لقد أوقظت فيّ الحنين، الحنين للعفة.

- ماذا؟ العفة؟

- أجل. رغم شهرتي الحمقاء كزوجٍ غير وفيّ، لدي حنين لا يرتوي للعفة!» وأضاف: «لنذهب إلى منزل آلان!

- إنه نائم الآن.

- سنوقظه. لدي رغبة بالشرب. معك ومعه. سنشرب نخباً على شرف العفة»

زجاجة آرمانياك
في عليائها المتعجرف

علا صوت بوق عدواني ومديد في الطريق. فتح آلان النافذة. في الأسفل، صفق كاليبان باب السيارة وصاح: «إننا نحن! هل يمكننا المجيء؟

- أجل، اصعدا!»

أعلن كاليبان من الدرج «هل يوجد عندك شيء ما للشرب؟

- لم أعرفك! لم تكن سكيراً قط! قال وهو يفتح باب الاستديو.

- اليوم هو استثناء! أريد أن أشرب نخب العفة!» قال كاليبان وهو يدخل الاستديو، وشارل يتبعه.

بعد ثلاث ثوانٍ من التردُّد، أصبح آلان سمحاً من جديد: «إذا أردت حقاً أن تشرب نخب العفة، فستحظى بفرصة حالمة. . .» وأومأ نحو الخزانة التي تتوّجها الزجاجة.

«قال شارل: آلان، أحتاج إلى إجراء مكالمة هاتفية» وحتى يستطيع أن يتحدث دون وجود شهود، اختفى في المدخل وأغلق الباب خلفه.

راح كاليبان يتأمل الزجاجة فوق الخزانة: «إنها زجاجة آرمانياك!

- قال آلان: وضعتها هناك في الأعلى لتجلس فوقها كملكة.

- إلى أيّ عام تعود؟» حاول كاليبان أن يقرأ اللصاقة، ثم قال بإعجاب: «أوه لا! هذا غير ممكن!

- أمر آلان: افتحها». فأخذ كاليبان كرسياً وصعد فوقه، لكنه حتى وهو واقف على الكرسي، لم يكد يفلح في لمس أسفل الزجاجة، كانت عصية على البلوغ في عليائها.

العالم بحسب شوبنهاور

وهو محاطٌ بالرفاق ذاتهم بعد الاجتماع الكبير ذاته، التفت ستالين إلى كالينين: «صدقني يا عزيزي، أنا أيضاً واثق أنّ مدينة الشهير إيمانويل كانط ستظلّ كالينينغراد إلى الأبد. وباعتبارك إشبين مدينته الأم، هل يمكنك أن تشرح لنا ما هي أهم فكرة لدى كانط؟»

لم يكن كالينين يعرف شيئاً عن ذلك. وبالتالي، كعادته، أجاب ستالين بنفسه وهو متذمر من جهلهم:

«الفكرة الأهم عند كانط يا رفاق هي «الشيء في ذاته»، ويُدعى بالألمانية «Ding an sich». كان كانط يعتقد أن وراء تصوراتنا ثمة شيء موضوعي «Ding»، لا يمكننا معرفته إلا أنه موجود مع ذلك، لكن هذه الفكرة خاطئة. ليس ثمة شيء موجود وراء تصوراتنا، لا «الشيء في ذاته» ولا «Ding an sich».

أصغى الجميع وهم محتارون، وتابع ستالين: «كان شوبنهاور أقرب إلى الحقيقة. ماذا كانت فكرة شوبنهاور العظيمة أيها الرفاق؟»

تجنب الجميع نظرة الممتحن الساخرة الذي انتهى بحسب عادته االشهيرة إلى الإجابة بنفسه.

«فكرة شوبنهاور العظيمة أيها الرفاق، هي أن العالم ليس إلا تصوراً وإرادة. هذا يعني أنه ليس ثمة وراء العالم كما نراه أي شيء موضوعي، ولا «Ding an sich» وأنه لإيجاد هذا التصور وجعله واقعياً، لا بد أن تمتلك إرادة فيه، إرادة عظيمة لفرضها عليه»

احتجّ جدانوف بوجل: «جوزيف، العالم هو تصور! لقد أجبرتنا طيلة حياتك على التأكيد بأن هذه هي كذبة الفلسفة المثالية للطبقة البرجوازية!»

ستالين: «ما هي أوّل خاصية للإرادة أيها الرفيق جدانوف؟»

سكت جدانوف، فأجاب ستالين: «حريتها. يمكن أن تؤكِّد ما تريد. هيا. السؤال الحقيقي هو: هناك من التصورات عن العالم بقدر ما يوجد من أشخاص على الكوكب، وهذا يخلق الفوضى حتماً؛ فكيف السبيل إلى ترتيب هذه الفوضى؟ الإجابة واضحة: بفرضِ تصوُّر واحد على جميع الناس. ولا يمكن فرضه إلا بإرادة واحدة، إرادة واحدة عظيمة، إرادة فوق جميع الإرادات. وهذا ما فعلته بكلّ ما أوتيت من قوة. وأؤكد لكم أنّ الناس في ظلّ إرادة عظيمة تنتهي إلى الاعتقاد بأي شيء! أوه أيها الرفاق، أي شيء!» وضحك ستالين والسعادة توشي صوته.

وهو يتذكر قصة الحجلات، نظر بخُبثٍ إلى رفاقه، وبالأخص إلى خروتشوف، القصير والبدين، الذي احمرّت

وجنتاه في تلك اللحظة، وتجرأ مرة أخرى أيضاً أن يكون شجاعاً، «لكن أيها الرفيق ستالين، حتى لو صدقوا أي شيء منك، لن يعودوا اليوم يصدقونك البتة.

ضربة قبضة على الطاولة تتصادى في الأرجاء

- أجاب ستالين: أنت فهمت كل شيء. لقد كفوا عن تصديقي. لأن إرادتي تعبت. إرادتي المسكينة التي استثمرتها كلياً في حلم بدأ العالم كله يأخذه على محمل الجد. لقد نذرت لأجل ذلك كلّ قواي. نذرت له نفسي. وأطلب منكم أن تجيبوني أيها الرفاق: لأجل من نذرت نفسي؟»

وهم مذهولون، لم يحاول الرفاق حتى أن يفتحوا أفواههم.

أجاب ستالين بنفسه: «لقد ضحَّيت بنفسي أيها الرفاق من أجل الإنسانية»

وكأنهم تنفسوا الصعداء، أيّدوا جميعاً هذه الكلمات الكبيرة بهزّ رووسهم. وذهب كاكانوفيتش إلى حد التصفيق.

«ولكن ما هي الإنسانية؟ إنها ليست شيئاً موضوعياً، إنها ليست سوى تصوري الذاتي، أي: هي ما أمكنني رؤيته بعينيّ من حولي. وماذا رأيتُ طيلة الوقت بعينيّ أيها الرفاق؟ رأيتكم أنتم! تذكّروا المراحيض التي كنتم تنزوون فيها لتهتاجوا ضد حكايتي عن الحجلات الأربع والعشرين! كنت أتسلى كثيراً في الممر وأنا

أصغي إليكم تصرخون، لكنني كنت أقول في سري في الوقت ذاته: ألأجل هؤلاء المغفلين بدَّدتُ كل قواي؟ ألِأَجْلهم عشت؟ ألِأَجْل هؤلاء الرثين؟ لأجل هؤلاء المخبولين المبتذلين؟ لأجل فلاسفة المباول؟ كنت أشعر وأنا أفكر فيكم أن إرادتي تتعب وتُرهق، وأن الحلم، حلمنا الجميل، الذي لم يعد مستنداً إلى إرادتي، ينهار مثل مبنى ضخم حطموا ركائزه»

وحتى يوضح ستالين هذا الانهيار، هوى بقبضته على الطاولة، فارتجَّت.

سقوط الملائكة

دوى صوت ضربة قبضة ستالين في رؤوسهم لفترة مديدة. نظر بريجينيف نحو النافذة ولم يسَعه أن يتمالك نفسه. ما رآه لا يُصدّق: ملاك يتدلى فوق الأسطح، باسطاً جناحيه. نهض عن كرسيه: «ملاك، ملاك»

نهض الآخرون أيضاً: «ملاك؟ لا أرى شيئاً!

- لكن أجل! هناك في الأعلى!

- تنهد بيريا: يا إلهي، ملاك آخر أيضاً! إنه يسقط!

- همس ستالين: أغبياء، سيوجد الكثير منهم وسترونهم يسقطون.

- يعلق خروتشوف: ملاك، هذه علامة!

- يتنهّد بريجينف وقد شلّه الخوف: علامة؟ لكن علامة على ماذا؟»

الآرمانياك المعتّق يسيل على الأرض

في الحقيقة، على ماذا كان يدل هذا السقوط؟ على يوتوبيا قاتلة لن توجد بعدها أية يوتوبيا أخرى؟ على حقبة لن يبقى لها أثر فيها؟ على فكاهات لن تعود تضحك أحداً؟

لم يكن آلان يطرح على نفسه هذه الأسئلة، فقد ارتاع لرؤية كاليبان يقع عن الكرسي على الأرض وهو يمسك الزجاجة بيده. انحى فوق جسده المسجى على ظهره، لم يكن يتحرك. وحده الآرمانياك المعتق (المعتق جداً جداً) كان يسيل على الأرضية الخشبية من الزجاجة المكسورة.

مجهول يودّع حبيبته

في اللحظة ذاتها وعلى الطرف الآخر من باريس، استيقظت امرأة جميلة في سريرها. هي أيضاً سمعت صوتاً قوياً ومختصراً كضربة قبضة على منضدة؛ وخلف عينيها المغمضتين، لم تزل ذكريات أحلام حية؛ راحت تتذكر وهي نصف مستيقظة أنها كانت أحلاماً إيروتيكية؛ انمحى مظهرها الملموس الآن، لكنها تشعر بنفسها منشرحة المزاج لأن هذه الأحلام، دون أن تكون مذهلة أو غير قابلة للنسيان، كانت ممتعه بالتأكيد.

ثم سمعت: «كان هذا جميلاً جداً»؛ عندئذٍ فقط فتحت عينيها وشاهدت رجلاً قرب الباب يتأهب للمغادرة. كان هذا الصوت

مثلوماً وضعيفاً ورفيعاً وهشاً، يشبه ذلك الرجل ذاتة. هل كانت تعرفه؟ بالطبع: تتذكره بغموض: كان في حفلة الكوكتيل عند دارديلو حيث كان أيضاً رامون العجوز المُوْله بها؛ ولكي تفرّ منه، تركت نفسها ترافق مجهولاً؛ تتذكر أنه كان في غاية اللطف والرزانة ولا يكاد يُرى إلى حدّ أنها لم تعُد قادرة حتى على استحضار لحظة انفصالهما، لكن يا إلهي، هل انفصلا؟

كرر قرب الباب: «حقاً إنك جميلة جداً يا جولي» وقالت في سرها، وهي مندهشة بخفة، إن هذا الرجل أمضى الليل حتماً في سريرها ذاته.

فألٌ سيىء

رفع كاكوليك أيضاً يده لتحية الوداع، ثم نزل إلى الشارع وجلس في سيارته المتواضعه، بينما كان كاليبان في الاستديو على الطرف الآخر من باريس ينهض من جديد عن الأرض بمساعدة آلان.

«هل أصابك مكروه؟

- لا. لاشيء. كل شيء على ما يرام. ما عدا الأرمانياك... لم يتبقَّ منه شيء. اعذرني يا آلان!

_ قال آلان: جاء دوري في أن أكون معتذراً، إنه خطئي لأنني تركتُك تصعد على هذا الكرسي القديم المتهالك» ثم مهموماً: «لكنك تعرج يا صديقي!

ـ إلى حدٍّ ما، لكن الأمر ليس خطيراً».

في تلك اللحظة، عاد شارل من الرواق وأقفل هاتفه النقال. رأى كاليبال منحنياً على نحو غريب وهو لم يزل يمسك زجاجة مكسورة بيده: «ماذا حدث؟

ـ أخبره كاليبان: كسرتُ زجاجة. لم يعُد هناك أرمانياك. إنه فأل سيئ.

ـ قال شارل: أجل، فأل سيئ جداً. يجب أن أغادر إلى باريس دونما إبطاء. أمي تُحتضر»

ستالين وكاليبان يهربان

حين يسقط ملاك فهذه بالتأكيد علامة. في قاعة الكرملين، كانت جميع العيون المحدقة بالنوافذ تشعر بالخوف. يبتسم ستالين ويبتعد نحو باب سري صغير في ركن القاعة مستفيداً من أن أحداً لا ينظر إليه. يفتحه ويلفي نفسه في غرفه ضيقة. هناك خلع بزته الرسمية الأنيقة وارتدى معطفاً رياضياً قديماً وبالياً، ثم تناول بندقية صيد طويلة. وهكذا عاد إلى القاعة متنكراً بزي صياد حجل واتجه نحو الباب الكبير المفضي إلى الممر. كانت أنظار الجميع محدقة في النوافذ ولم يره أحد. وفي اللحظة الأخيرة، عندما هَمَّ أن يضع يده على قبضة الباب، توقف لبرهة كما لو أنه أراد أن يلقي نظرة أخيرة ماكرة على رفاقه. تتلاقى عيناه بعيني خروتشوف الذي يبدأ بالصراخ: «إنه هو! انظروا إليه في بزته؟

سيُوهِم الجميع أنه صياد! سيتركنا في الورطه! لكن هو الآثم! نحن جميعاً ضحاياه! ضحاياه هو!

أصبح ستالين الآن بعيداً في الممر بينما يضرب خروتشوف الحائط، يضرب الطاولة، يخبط الأرض بقدميه المنتعلتين حذاء أوكرانياً ضخماً ملمَّعاً على نحو سيئ. يُحرض الآخرين على أن يسخطوا هم أيضاً. وسرعان ما يصرخ الجميع ويزعقون ويخبطون بأرجلهم ويقفزون ويضربون الحائط بقوة، ويهوون على المنضدة بقبضاتهم، ويطرقون الأرض بكراسيهم، لدرجة أنّ الغرفة ترن بضجيج مصمّ. يسود الهرج والمرج كما كان يحدث قديماً حين كانوا يتجمعون كلهم أثناء الاستراحات في المراحيض أمام المباول الملونة المزدانة بالأزهار المصنوعة من السراميك.

كانوا كلهم هناك كما قديماً؛ وحده كالينين ابتعد سراً تطارده رغبة مُخيفة للتبول، يتوه في أروقة الكرملين، لكنه وهو غير قادر على العثور على أية مبولة، ينتهي به الحال إلى الخروج والركض في الشوارع.

الجزء السابع

حفلة التفاهة

حوار على دراجة نارية

في اليوم التالي، نحو الساعة الحادية عشر صباحاً، كان لدى آلان موعد مع صديقيه رامون وكاليبان أمام المتحف قرب حديقة لوكسمبورغ. قبل أن يخرج من الاستديو، التفت وقال لوالدته في الصورة «إلى اللقاء». ثم خرج إلى الطريق واتجه نحو دراجته النارية المركونة غير بعيد عن منزله. وهو يمتطيها، راوده انطباع غامض بأنه يشعر بوجود جسد خلف ظهره. كما لو أن مادلين معه وتلامسه بخفة.

أثار هذا الوهم انفعاله؛ وبدا له أنه يعبِّر عن الحب الذي يكنه لصديقته؛ انطلق.

ثم سمع صوتاً خلفه: «ما زلتُ أرغب بالتحدث معك»

لا، لم تكن مادلين. تَعَرَّفَ على صوت والدته.

كان الشارع مزدحماً وسمع: «أريد أن أتأكد أنه ليس هناك أي سوء فهم بيتي وبينك، وأن كل واحد منا يفهم الآخر جيداً...»

اضطر للفرملة. انسلّ أحد المشاة ليعبُر الطريق والتفت نحوه بحركات متوعدة.

«سأكون صريحة. بدا لي دوماً أنه من المرعب إرسال شخص إلى العالم دون أن يطلب ذلك.

- قال آلان: أعرف.

- انظر حولك: لا أحد من جميع أولئك الذين تراهم موجود هنا بإرادته. بالتأكيد ما قُلتُه منذ برهة هو الحقيقة الأكثر تفاهة بين جميع الحقائق. إنها في غاية التفاهة والجوهرية إلى حد أنهم كفوا عن رؤيتها وسماعها»

تابع طريقه بين شاحنة وسيارة يحصرانه من الجانبين منذ بضع دقائق.

«الجميع يهذون حول حقوق الإنسان. يا لها من طرفة! لم يتأسَّس وجودك على أي حق. وحتى لا يسمح لك فرسان حقوق الإنسان أن تُنهي حياتك بإرادتك»

أُضيء نور أحمر على مفترق طرق. فتوقف. أخذ المشاة من جانبي الطريق يسيرون نحو الرصيف المقابل.

وتابعت الأم: «انظر إليهم جميعاً! انظر! نصف هؤلاء الذين تراهم على الأقل قبيحون! أن يكون المرء قبيحاً! هل هذا أيضاً جزء من حقوق الإنسان؟ وهل تعرف أنه يحمل قبحه طيلة حياته؟ دون أية راحة؟ جنسك أيضاً، أنت لم تختره. ولم تختر لون عينيك ولا القرن الذي تحيا فيه. ولا بلدك. ولا أمك. ولا أي شيء مهم. الحقوق التي يمكن أن يحصل عليها إنسان لا تتعلق

إلا بتفاهات وليس ثمة سبب للصراع حولها أو كتابة إعلانات شهيرة عنها!»

أخذ يجري من جديد، ورنّ صوت والدته: «أنت موجود على هذه الحال لأنني ضعفت. كان هذا خطئي. أرجوك أن تغفر لي»

سكت آلان، ثم قال بصوت هادئ: «لماذا تشعرين بالذنب؟ لأنك لم تستطيعي منع ولادتي؟ ألأنك لم تتصالحي مع حياتي التي لم تكن رغم ذلك سيئة إلى هذا الحدّ من باب الصدفة؟»

أجابت بعد برهة صمت: «ربما أنت محق. إذاً أنا آثمة بشكل مضاعف

- قال آلان: أنا من يجب عليه الاعتذار. لقد سقطتُ في حياتك كالروث. طردتك إلى أميركا.

- أوقِفْ اعتذاراتك! ماذا تعرف عن حياتي يا أحمقي الصغير؟ هل تسمح لي أن أناديك بالأحمق؟ أجل، لا تغضب، أنت أحمق برأيي. وهل تعرف مصدر حماقتك؟ إنها طيبتك! طيبتك المثيرة للسخرية!»

وصلا إلى حديقة لوكسمبورغ. ركن الدراجة النارية.

«قال: لا تحتجّي، ودعيني أعتذر. إنني معتذر. هكذا صنعتماني، أنتِ وهو. وباعتباري معتذراً، أشعر بالسعادة حين نتبادل أنا وأنتِ الاعتذارات. أليس جميلاً أن يعتذر أحدنا للآخر؟»

ثم توجها نحو المتحف:

«قال: صدقيني إنني متَّفق مع كلّ ما قُلتِهِ لي للتو. مع كل شيء. أليس جميلاً أن نكون أنا وأنتِ متفقين؟ أليس جميلاً تحالفنا؟»

«آلان! آلان!» قطع صوتُ رجلٍ حديثهما: «إنك تنظر إليّ كأنك لم ترني من قبل قط!»

رامون يناقش آلان
عن عصر السرة

أجل، إنه رامون. «قال لآلان: هذا الصباح تلفنت لي زوجة كاليبان. حدّثتني عن سهرتكم. أعرف كل شيء. غادر شارل إلى تاربس. أمه تحتضر.

- قال آلان: أعرف ذلك. وكاليبان؟ حين كان في منزلي، سقط عن كرسي.

- قالت لي هذا. ولم يكن ذلك مؤذياً جداً. وبرأيها، لديه صعوبة في المشي. إنه يتألم وهو نائم الآن. كان يريد أن يرى معرض شاغال معنا. لن يره. وأنا أيضاً من جانبي لن أراه. لا أحتمل الانتظار في طابور. انظر!»

«قال آلان: إنه ليس طويلاً.

- ربما ليس طويلاً. لكنه مقزز رغم كل شيء.

- كم عدد المرات التي جئتَ فيها وغادرتَ؟

- ثلاث مرات حتى الآن، لكنني في الواقع لم آتِ إلى هنا

لرؤية شاغال وإنما لأتأكد من أن الطوابير تزداد طولاً من أسبوع إلى آخر، أي أن العالم يغدو مأهولاً أكثر فأكثر. انظر إليهم! هل تعتقد أنهم أصبحو يحبون شاغال فجأة؟ إنهم مستعدون للذهاب إلى أي مكان، لفعل أي شيء، فقط ليقتلوا الوقت الذي لا يعرفون ما يفعلون به. لا يعرفون شيئاً، لذلك يستسلمون للانقياد. اعذرني، إن مزاجي سيئ. بالأمس أفرطتُ في الشرب. حقاً أفرطت في الشرب.

- والآن، ماذا تريد أن تفعل؟

- لنتنزه في الحديقة! الطقس جميل. ثمة عدد أكبر من الناس يوم الأحد، لكن هذا حسن. انظر! الشمس!»

لم يعترض آلان. في الواقع، كان جو الحديقة هادئاً. ثمة أناس يركضون، وهنالك مارة، ويوجد على المرج حلقات أشخاص يقومون بحركات غريبة وبطيئة، وهناك من يأكلون البوظة، وثمة خلف السياج من يلعبون التنس...

«قال رامون: هنا، أشعر بتحسن. بالتأكيد يسود التشابه في كل مكان، لكن في هذه الحديقة ثمة خيارات كبيرة من الأزياء. يمكن للمرء أن يحتفظ هنا بوهم فرديته.

- وهم الفردية... هذا مدهش: أجريتُ منذ بضع دقائق محادثة غريبة.

- محادثة؟ مع من؟

- وهنالك السرة...

- ... أي سرة؟

- ألم أكلمك بعد عنها؟ منذ بعض الوقت وأنا أفكر كثيراً بالسرة. . . »

كأن مخرجاً غير مرئيّ رتب هذا الأمر، مرّت بقربها شابتان، وسرتاهما معراتان بأناقة.

لم يسع رامون إلا أن يقول: «في الواقع»

وآلان: «التنزه بسرة مكشوفة على هذا النحو هو دُرْجَةُ اليوم. إنها مستمرة منذ عشرة سنوات على الأقل.

- ستمضي كما مضت كل الدُرْجَات من قبلها.

- لكن لا تنسى أن دُرْجَةَ السرة دشنت الألفية الجديدة! كأن شخصاً في هذا التاريخ الرمزي رفع ستارة ظلت تمنعنا لقرون عن رؤية الأساسي: إن الفردية هي وهم!

- أجل هذا مؤكّد، لكن ما علاقته بالسرة؟

- على جسد المرأة الإيروتيكي، ثمة بضعة أماكن ذهبية: ظننت دوماً أنه يوجد منها ثلاثة أمكنة: الفخذين والردفين والنهدين»

فكر رامون وقال: «لم لا . . .

- ثم أدركتُ ذات يوم أنه يمكنني أن أضيف إليها مكاناً رابعاً: السرة»

وافق رامون بعد لحظة تفكير: «أجل، ربما»

- تابع آلان: «ثمة شكل مختلف للفخذين والردفين والنهدين عند كل امرأة. هذه الأماكن الذهبية الثلاثة ليست مثيرة وحسب، إنما تعبّر في الوقت ذاته عن فردية المرأة. لا يمكن أن تُخْطِىءَ

أرداف المرأة التي تحبها. ستتعرف على الأرداف المحبوبة من بين مئات الأرداف الأخرى، لكنك لن تستطيع تحديد هوية من تحب من سرتها. فجميع السرات متشابهة».

قاطع عشرون طفلاً الصديقين وهم يتراكضون ويضحكون ويصرخون.

تابع آلان: «يمثل كل واحد من هذه الأمكنة الذهبية الأربعة رسالة إيروتيكية. وأتساءل ما هي الرسالة الإيروتيكية التي تُحَدِّثُنا عنها السرة»، وبعد وقفة: «ثمة أمر واحد بديهي: على النقيض من الفخذين والردفين والنهدين، لا تقول السرة شيئاً عن المرأة التي تحملها، إنها تتحدث عن أمر لا يخص تلك المرأة.

- عن ماذا؟

- عن الجنين.

- وافق رامون: عن الجنين بالتأكيد»

واستمر آلان: «كان الحب قديماً احتفالاً بالفردية وبالفريد، مجدُ ما هو فريد، وما لا يحتمل أي تكرار، لكن السرة لا تثور ضد التكرار وحسب، إنما هي دعوة للتكرار! وسنعيش في ألفيتنا تحت شعار السرة. وتحت هذه العلامة، نحن جميعاً جنود الجنس، نرمقُ بالنظرة ذاتها، ليس المرأة المحبوبة، وإنما الحفرة الصغيرة ذاتها وسط البطن التي تمثل معنىً وحيداً وهدفاً وحيداً ومستقبلاً وحيداً لكل شهوة إيروتيكية»

فجأة، قطع لقاء غير متوقع حديثهما. في مواجهتهما، وصل darديلو إلى الممر ذاته.

وصول دارديلو

كان قد أفرط في الشرب أيضاً، ونام نوماً سيئاً، وها هو يُرَوِّحُ عن نفسه بنزهة في حديقة لوكسمبورغ. سَبَّبَ له ظهور رامون ضيقاً في البداية. فقد دعاه إلى حفلة الكوكتيل بدافع التهذيب فقط، لأنه وجد له خادمين لطيفين لحفلته. ولم يحاول دارديلو في حفلة الكوكتيل أن يخصص لحظة وجيزة لاستقباله والترحيب به، نظراً إلى أن هذا المتقاعد أصبح دون أية أهمية بالنسبة له. ولأنه يشعر بالذنب الآن، فتح ذراعيه وهتف: «رامون! صديقي!»

تذكر رامون أنه هو أيضاً توارى من حفلة الكوكتيل حتى دون أن يودع زميله القديم بكلمة، لكن الاستقبال الصاخب لدارديلو خفف عنه إحساسه بالخطأ، ففتح هو أيضاً ذراعيه وصاح: «مرحباً يا صديقي!» وقدَّم له آلان ودعاه بحرارة للانضمام إليهما.

تذكر دارديلو بوضوح أنه في هذه الحديقة ذاتها جَعَلَهُ إلهامٌ مفاجئ يختلق كذبة مرضه المميت الغريبة. ما العمل الآن؟ لا يمكنه أن يناقض نفسه ولا يسعه إلا الاستمرار في زعمه أنه مصاب بمرض خطير؛ فضلاً عن ذلك، لم يجد الأمر محرجاً للغاية، وسرعان ما أدرك أنه ليس ثمة ضرورة لكبح روح دعابته من أجل هذا السبب، لأن الأحاديث المازحة والمرحة تجعل الإنسان المريض مرضاً خطيراً أكثر جاذبية وإثارة للإعجاب.

راح يثرثر أمام رامون وصديقه بنبرة مرحة ومسلية عن هذه الحديقة التي يعتبرها جزءاً من مشهده الطبيعي الأكثر حميمية،

وجزءاً من «ريفه»، كما ردد مراراً؛ راح يحدثهما عن تماثيل الشعراء والرسامين والوزراء والملوك؛ «قال: انظرا، لم تزل فرنسا المنصرمة حية!» ثم أشار بتهكُّم لطيف ومرح إلى تماثيل سيدات فرنسا البيضاء والكبيرة، إلى الملكات والأميرات والوصيات على العرش، المنتصبات من أقدامهن حتى رؤوسهن، بكل اطمئنان، على قاعدة ضخمة؛ تبعد كل واحدة منهن عن الأخرى عشر أو خمس عشر متراً، ويؤلفن معاً دائرة فسيحة تطلُّ على حوض سباحة جميل في الأسفل.

وأبعد من ذلك، أخذ الأطفال يتجمعون، وسط ضجة صاخبة تصدر عن مجموعات منهم تصل من مختلف الاتجاهات. «آه. الأطفال! هل تسمع ضحكهم؟ ابتسم دارديلو. ثمة عيد اليوم، نسيت ما اسمه. عيد الأطفال، شيء من هذا القبيل»

فجأة، أصبح الصوت متيقظاً: «لكن ماذا يحدث هناك؟»

وصول صياد ومتبول

من جادة الأوبسيرفاتوار، يركض في الممشى الكبير رجل في الخمسين من عمره تقريباً، له شاربان، ويرتدي معطفاً رياضياً قديماً ومهترئاً، ويعلق بندقية صيد على كتفه، متجهاً نحو حلقة السيدات العظيمات المصنوعات من الرخام. يلوِّح ويصرخ. أخذ المارة من حوله يتوقفون وينظرون إليه بدهشة وتعاطف. أجل، بتعاطف، لأن الوجه ذا الشاربين كان يبتسم بشيء من الوداعة وهو ما لَطَّفَ جو الحديقة بنغمة غزلية قادمة من الأزمنة

المنصرمة. كان يُذَكِّر بصورة عداء، فاتن القرية، مغامرٌ محبوب خاصة أنه أصبح الآن متقدماً في السن إلى حدّ ما وأكثر حكمة. وزَّع عليه الجمهور ابتسامات وهو مفتتن بسحره الريفي وطيبته الرجولية، ومظهره الفلكلوري، فردَّ عليها بسعادة وودّ.

ثم رفع يده باتجاه أحد التماثيل وهو لم يزل يركض. تابع جميع الناس إشارته ورؤوا رجلاً آخر، كان عجوزاً للغاية، ناحلاً على نحوٍ يثير الرثاء، ذا لحية صغيرة مدببة، وكان يريد أن يحمي نفسه من النظرات المتطفلة، فاختبأ وراء قاعدة تمثال ضخمة لسيدة عظيمة من الرخام.

قال الصياد: «لنرَ، لنرَ!»، وسدَّد بندقيته من على كتفه وأطلق نحو التمثال. إنه لماري دوميديسي، ملكة فرنسا الشهيرة بوجهها الكهل والمنتفخ والقبيح والمتعجرف. انتزعت طلقة البندقيه أنفها ما جعلها تبدو أكثر هرماً وقبحاً وانتفاخاً وتعجرفاً، فما كان من الرجل العجوز المختبىء خلف قاعدة التمثال إلا أن بدأ يركض مبتعداً وفزعاً، وانتهى به الأمر إلى أن يلبد خلف فالنتين دوميلان، دوقة أورليانز (وكانت أجمل بكثير)، وذلك للفرار من نظرات المتطفلين.

تضايق الناس في البداية من طلقة البندقية غير المتوقعة ومن وجه ماري دوميتسي المجدوعة الأنف؛ وهم حائرون لا يعرفون ما يفعلون، أخذوا ينظرون يميناً ويساراً، وينتظرون علامة ترشدهم: كيف يفسرون تصرف الصياد؟ هل يجب أن يعتبروه مُداناً أم مسلياً؟ هل عليهم أن يصفِّروا أم يصفقوا؟

وكما لو أنّ الصياد تكهَّن بحرجهم، هتف: «إنه يبول في أشهر حديقة فرنسية، هذا ممنوع!» فيما راح ينظر إلى جمهوره الصغير وهو يقهقه، وكانت ضحكته في غاية المرح، وغاية الحرية والبراءة والريفية والأخوية، ومعدية جداً، حتى إن جميع الناس من حوله أخذوا يضحكون أيضاً كما لو أنهم شعروا بالارتياح.

خرج العجوز ذو اللحية المدببة من خلف تمثال فالنتين دوميلان وهو يزرِّر فتحة بنطاله؛ ووجهه يعبِّر عن سعادة وارتياح.

على وجه رامون استقرت روح الدعابة. فسأل آلان: «ألا يذكِّرك هذا الصياد بشيء ما؟

- بالتأكيد: يذكرني بشارل

- أجل. شارل معنا. هذا هو الفصل الأخير من مسرحيته»

حفلة التفاهة

في تلك الأثناء، انفصل نحو خمسين طفلاً عن الحشد واصطفوا في نصف دائرة مثل جوقة. مشى آلان بضع خطى نحوهم، وهو يتحرق لرؤية ما سيحدث، وقال دارديلو لرامون: «كما ترى، الحيوية هنا ممتازة! هذان نموذجان كاملان! إنهما بالتأكيد ممثلون بلا التزام. متعطلون عن العمل. انظر! إنهم ليسوا بحاجة إلى خشبة مسرح. تكفيهم ممرات الحديقة. إنهم لا يهدؤون. يريدون أن يكونوا نشيطين. إنهم يكافحون للعيش» ثم

خطر بباله مرضه الخطير، وحتى يُذَكِّرَ بقدره المأسوي، أضاف بصوت خافت جداً: «أنا أيضاً أكافح.

- قال رامون: أعرف يا صديقي، وأنا معجب بشجاعتك»

وأضاف وهو راغب في أن يدعمه بمصابه: «منذ زمن طويل يا داردیلو وأنا أرغب في أن أكلمك بأمر ما. عن قيمة التفاهة. في ذلك الوقت، كنت أفكر في علاقاتك مع النساء. كنت أريد أن أحدثك آنذاك عن كاكوليك، صديقي العظيم. أنت لا تعرفه. أعلم. هيا، تتبدى لي التفاهة الآن تحت ضوء مختلف تماماً عن ذلك الحين، إنها تحت نور أسطع وأكثر كشفاً. التفاهة يا صديقي هي جوهر الوجود. إنها معنا على الدوام وفي كل مكان. إنها حاضرة حتى في المكان الذي لا يرغب أحد برؤيتها فيه: في الفظائع، في المعارك الدامية، في أسوأ المصائب. وهذا غالباً ما يتطلب شجاعة للتعرف عليها في ظروف دراماتكية للغاية ولتسميتها باسمها، لكن ليس المقصود التعرف عليها فقط، إنما يجب أن نحبها، التفاهة، يجب أن نتعلم حبها. هنا، في هذه الحديقة، أمامنا، انظر يا صديقي، إنها حاضرة بكل بداهتها، بكل براءتها وبكل جمالها. أجل، جمالها. وكما قلتَ أنتَ نفسك؛ الحيوية الكاملة... وغير المُجدية تماماً، الأطفال الذين يضحكون... دون أن يعرفوا لماذا، أليس هذا جميلاً. استنشق يا صديقي داردیلو، استنشق هذه التفاهة المحيطة بنا، فهي مفتاح الحكمة، وهي مفتاح روح الدعابة...»

في تلك اللحظة وحسب، وعلى بُعد بضعة أمتار منهما،

احتضن الرجل ذو الشاربين العجوز ذا اللحية المدببة من كتفيه وخاطب الناس المتجمهرين حولهما بكلمات تلفَّظها بصوت احتفالي جميل: «أيها الرفاق! أقسمَ لي صديقي القديم بشرفه أنه لن يتبول بعد الآن على سيدات فرنسا العظيمات!»

ثم انفجر ضاحكاً مرة أخرى أيضاً، فأخذ الناس يصفقون ويهتفون، وقالت الأم: «آلان، إنني سعيدة لوجودي معك هنا» ثم تحول صوتها إلى ضحكة خفيفة، هادئة وعذبة.

قال آلان: «أنت تضحكين؟ لأنها المرة الأولى التي يسمع أمه تضحك فيها.

- أجل

- قال متأثراً: أنا أيضاً سعيد»

بالمقابل، لم يتفوه دارديلو بأية كلمة، وأدرك رامون أن مديحه للتفاهة لا يمكن أن يعجب هذا الرجل المتشبث بجدية الحقائق الكبرى؛ فقرر أن يتصرف بطريقة مختلفة: «شاهدتكما بالأمس، أنت وفرانك. كنتما جميلين، كلاكما معاً»

راقب وجه دارديلو وتأكد أنه استقبل كلماته هذه المرة على نحو أفضل بكثير. ألهمه هذا النجاح وخطرت بباله على الفور فكرة، فكرة كذبة عابثة بقدر ما هي ساحرة، فقرر أن يحولها الآن إلى هدية، هدية لشخص لم يعد أمامه وقت طويل لعيشه: «لكن انتبه، عندما يراكما الناس، يتضح كل شيء!

- يتضح؟ ما الذي يتضح؟ يسأل دارديلو بمتعة تكاد تكون مكظومة.

- يتضح أنكما عاشقان. لا، لا تنكر ذلك، فهمتُ كل شيء. ولا تقلق، لا يوجد إنسان يكتم السر أكثر مني!»

حدق دارديلو في عيني رامون فشاهد، كما في مرآة، صورة رجل مصاب بمرض عضال تنعكس فيها، لكنه سعيد، فهو صديق سيدة مشهورة لم يلمسها قط، وصار بعد ذلك عشيقها السري على نحو مفاجىء.

قال: «عزيزي، صديقي» وعانق رامون. ثم انطلق وعيناه مخضلتان بالدموع، سعيداً مرحاً.

اصطفت جوقة الأطفال الآن في نصف دائرة كاملة وتأهب القائد، وهو صبي في العاشرة من عمره يرتدي سترة رسمية ويحمل عصاً في يده، لإعطاء شارة بدء الحفلة.

لكن يجب الانتظار لبضع لحظات أخرى أيضاً، لأن عربة خيل صغيرة مطلية بالأحمر والأصفر، يجرها مُهران، أخذت تقترب بصخب. يرفع الرجل ذو الشاربين المرتدي سترة رياضية قديمة بالية، يرفع عالياً بندقية الصيد الطويلة. يطيعه الحوذي، وهو أيضاً ولد صغير، ويوقف العربة. يصعد الرجل ذو الشاربين والعجوز ذو اللحية إليها، يجلسان ويحييان للمرة الأخيرة الجمهور الذي يلوح لهما بأذرعه وهو مذهول، بينما تبدأ جوقة الأطفال في غناء النشيد الوطني الفرنسي.

تنطلق العربة الصغيرة وتغادر حديقة لوكسمبورغ عبر ممرٍّ عريض وتبتعد ببطء في شوارع باريس.

المحتويات

الجزء الأول: الأبطال يتعارفون 5

الجزء الثاني: مسرح العرائس 19

الجزء الثالث: آلان وشارل يفكران بأمهاتهما دوماً 35

الجزء الرابع: الجميع يبحثون عن روح الدعابة 49

الجزء الخامس: ريشة تحلق تحت السقف 69

الجزء السادس: سقوط الملائكة 81

الجزء السابع: حفلة التفاهة 95

ميلان كونديرا

حفلة التفاهة

«أدركنا منذ زمن طويل أنه لم يعُد بالإمكان قلبُ هذا العالم، ولا تغييره إلى الأفضل، ولا إيقاف جريانه البائس إلى الأمام. لم يكن ثمة سوى مقاومة وحيدة ممكنة: ألّا نأخذه على محمل الجد».

كأنما أراد كونديرا أن يلخّص بهذه العبارة كلّ أعماله، إذ إن **حفلة التفاهة** هذه، آخر رواية له، هي تتويج لكلّ كتاباته. ليس هنالك ما هو جدّي، لا ستالين صياد الحجل، ولا الخادم الذي اختلق لغة باكستانية مبسَّطة، ولا من يهوى السرَّة، ولا المؤلف، ولا أقواله... كل شيء يتخذ صورة العبث اللانهائي الذي بثّه كونديرا في معظم كتاباته.

ماذا يتبقى من حياة أي إنسان؟ إنها هذه التفاهة بالضبط، وهي التي تتيح لنا أن نشعر بأننا أقلّ أهمية، وأكثر حرية، وأكثر التصاقاً بالأدب من العالم المحيط بنا.

هذا الكتاب القيِّم والمُبهِج والمسلّي سيمتّع على الأخص أولئك الذين سبق لهم أن ولجوا عالم كونديرا الرائع. إنه كتاب يمزج في آنٍ معاً التاريخ والفلسفة والهزل، هذا الثلاثي الرائع، ليروي قصة يلتقي فيها ستالين مع رجال عظماء آخرين من قرون منصرمة ويتعايشون في **حفلة التفاهة** هذه بطريقة طريفة ومتفرّدة.

ماذا يسعنا أن نقول أيضاً؟ لا شيء. اقرؤوا!

لوحة الغلاف لبيكاسو

ISBN 978-9953-68-732-2
9 789953 687322

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com